الفصل الخامس

خُلق الرسول ﷺ

لقد امتاز خلق الرسول ﷺ بميزات فريدة، لم تتيسر مجتمعة في من سواه، لذا وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، ومن مميزات ومظاهر خلقه العظيم ﷺ:

1 - إقامة الميزان.

2 - الظهور.

3 - القوة والثبات.

فأمّا توازن خلقه ﷺ فهو: اجتماع مجموعة السمات الخلقية على تعددها وتأثيرها فيه، وبروز كلّ خلق في الموقف المناسب لبروزه وظهوره؛ إذ لم يستول خلق على آخر، أو يغطيه ويستره، أو يقلل من مفعوله وأثره، وهذا لم يحزه أحد قبله، ولم يبلغه أحد بعده، وهو وجه من وجوه الإعجاز الخلقي في حياة النبي ﷺ، فقد يكون في الناس من لا يهابون الموت ولكنهم في الوقت نفسه قساة لا يرحمون في فورة الغضب، وقد تلقى رحماء القلوب لطفاء المعاشرة، ولكنهم في الخصام لا يبينون، وللقاء والنزال يتهيّبون، وهكذا تنمو سمة أو سمات خلقية معينة على حساب غيرها حتى تستولي على صاحبها، فيعرف بها، ويعامل على أساسها، أو قد يلام على الإفراط لندائها.. أما الرسول ﷺ فقد تكاملت مفردات خلقه وتناسقت كباقة زهر من أين نظرت إليها طالعك الحسن واللطف.

obeikandl.com

أما الوجه الثاني من خلقه العظيم فهو: الظهور؛ فقد كان خلقه وأعماله المتشكلة وفق هديه بيّنة للعيان، مكشوفة للناس؛ إذ كان يرافقه في سفره وحضره، ولقاءاته وأعماله، وحركاته وسكناته، ومجالسه العامة والخاصة، عدد من أصحابه قلّ أم كثر، أولئك الرجال الذين كانوا بدافع من حبهم له ﷺ، ورجاء التأسي به، وسعيهم للالتزام بمنهاجه، عيوناً تراقب، كوكالات أنباء سائرة، ومراقبين يقظين، وشهود عيان حاضرين، وأغنى ذلك عن عدسات لاقطة تدور معه حيث دار، فكلٌّ حسب وقته وحبّه يصاحب ويشاهد، ويراقب ويلاحظ، ويستمع ويتفقه، يعز عليهم أن يفوتهم من حياته مشهد، ويؤسفهم أن لا يصلهم من أحاديثه وأعماله كبير أو صغير، وحتى بعض حياته العائلية ومتعلقاته الخاصة أذن لأزواجه أمهات المؤمنين ومرافقيه - وبعضهم شبه ملازم له - أن يحدث ويقص كلماته ومنهاجه إلى الناس بحرفية ما وسعهم، ودون تحرج أو استحياء!، فلا كواليس كما يقال، ولا لقطات فيها مقاطع تُحذف أو تُزال، ولا صفحات مجهولة تحجب عن الأنظار!. والقرآن الكريم بيّن كثيراً من خصوصياته وأموره العائلية ومنهاجه فيها.. مع كل هذا وذاك لم يُعثر في شريط حياته الطويل إلا على خلق عظيم، وحياة عملية تقية، فهل بإمكان غيره أن يعيش مثله تحت النور!؟.

إنّ هناك من كان له أثر في السياسة الدولية، أو القيادة الحربية، أو الكتابة العلمية أو الأدبية،وفي عصرهم كادوا أن يكونوا شغل سمع أهل الدنيا وبصرهم وفؤادهم، ولكنهم سرعان ما فرطوا بحق شعوبهم، أو أنّهم أحاطوا أنفسهم بأجواء من التكتم والسرية، فلم تلتق بهم الناس إلا من خلال خطبهم في المحافل، أو تصريحاتهم للمؤسسات الإعلامية، أو أبحاثهم المقدمة إلى المجامع العلمية والتقديرية، أو أنباء انتصاراتهم العسكرية.. ولكن حين طواهم الموت عن موقع الأحداث، وأقصاهم عن مواقع التأثير، هنالك تكشفت للناس نقاط الضعف في سيرهم وخلقهم، وبدت لهم التناقضات

المريعة بين مواهبهم ومواقفهم الحياتية، والذي تولى كشف ذلك إنما كان المقربون منهم، كالصديق الحميم، والمستشار المؤتمن، ورفيق القلم والسلاح، والسكرتير، والزوجة، والخادم «المرافق»، والطبيب الخاص والسائق الخاص، حتى غدا في عرف بعضهم أنّ البروز لا صلة له بالخلق إذ قال فولتير:

«إنّ الرجل لايكون عظيماً في داخل بيته، ولا بطلاً في أسرته»[1]. ولا يستثنى من هذا الحكم إلا صاحب الخلق العظيم وإخوانه الأنبياء والمرسلون من قبله عليهم السلام، ولذا يقول باسورت سميث: «إنّ ما قيل عن العظماء في مباذلهم لا يصح في الأقل في محمد رسول الإسلام ﷺ»[2].

فإذا ما وجَّهْنا وَجْهَنَا نحو خلق الرسول ﷺ من خلال نظرة بعض المقربين إليه في حياته وبعد وفاته، رأينا صورة من أروع صور الحسن الخلقي.

وفي كتب الحديث شهادات وصور وصفيّة وتقديرات علنية جاءت على ألسنة أهل بيته المقربين ورفقائه الملازمين، ومستشاريه المؤتمنين، وأصحاب سره، كما أن كتب السيرة مليئة بنوادر حب أصحابه له وإيمانهم بنبوته، وإيثاره على أنفسهم وأهلهم وأبنائهم، وتنازلهم في سبيل الله عن حياتهم ومستقبلهم وشبابهم.

ولنستحضر بعض شهادات ذوي القربى الذين وقفوا على أموره، حيث ليس بوسعه إلا أن ينطلق مع سجيته في معاملته لهم.. وقد يظهر لهم سره، وينسجم أثناء محادثتهم مع دخائل نفسه، ولو أراد غير ذلك لما استطاع لطول مصاحبتهم له، وكثرة لقائهم به، وانعدام كثير من الفواصل النفسية بينه وبينهم.

---

(1) الرسالة المحمدية، سليمان الندوي، ص: 106.

(2) المصدر نفسه، ص: 106.

1 - خديجة رضي الله عنها : وهي زوجته الأولى، عاشرته في كهولته، وعاملته في التجارة، واطلعت على تفاصيل حياته، وعاشت معه تجربة الحياة الواقعية، وتداخلت شعورياً مع شعوره، وهي من قالت له: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1]، آمنت بنبوته، ورابطت معه، وعاونته مالياً ونفسياً.

2 - عائشة رضي الله عنها : عاشت معه عشر سنوات، ولما سئلت عن خلقه ﷺ لم تجد وصفاً أفضل من هذه الجملة: «إنَّ خلق نبيَّ الله كان القرآن»[2]، القرآن كله، فاقرأ فيه ما شئت من خلق، وتملّ ما في صفحاته من أخلاق النبيين عليهم السلام والصالحين، فما أحسن خلقه وأجمعه وأفضله !. إنه القرآن، والإنسان الذي يقوى على تحويل الخطاب الخلقي في القرآن وترجمته في زمان محدود إلى واقع عملي وصور مشهودة ومواقف محمودة، بين قوم تمزق الخلق في علائقهم ووهى أمر الدين في أنفسهم، وضحل تأثير الحق في حياتهم، ثم يصنع بيديه أمثالاً حية من الرجال لتلك الأخلاق تمشي على رجلين.. ليس ذلك الإنسان إلا نبياً اختاره الله سبحانه على علم، وأدبه فأحسن تأديبه.

3 - أبو بكر رضي الله عنه : مثال لأصدقائه، ومستشاره ومعاونه، والصديق الحميم ينسجم كلياً مع صديقه حتى ليطلع على كثير من مكنونات نفسه وجوانب حياته... فلو لم يكن أبو بكر متيقناً من صدقه ﷺ وخلقه العظيم قبل النبوة لما انجذب إلى الإيمان به نبياً، مع مجيئه ﷺ على فتره من الرسل، في وسط يتعجب من النبوة، فما إن أخبره ﷺ بنبوته حتى آمن دون تردد أو تذبذب أو شك.

---

(1) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب3، برقم 3.

(2) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ برقم 746، والنسائي 1652، وهو جزء من حديث طويل.

ولو كان ﷺ متكلفاً للخلق الحسن، يجامل الأقوياء والغرباء من أتباعه، ويبذل من نفسه وماله في التعاطف معهم وملاحظتهم، ليضمن تعاونهم معه، ونصرتهم له، لما كان بمقدوره أن يكبت ما يضم عليه جوانحه في معاملته من له عليهم حق الأمر أو إمكانية التأثير في حياتهم: كالزوج، والخادم، والصديق القريب، ولأذاقهم الأمرّين. . فإيمان المقربين بنبوته وشهادتهم بحسن خلقه وعدم انقلابهم أو ارتدادهم مع المرتدين شاهد على صدقه في دعوى النبوة، لذلك يقول سير وليم مور: «إن أوثق برهان على صدق محمد ﷺ وإخلاصه، أنه كان أسبق الداخلين في الإسلام من ذوي الاستقامة من خاصة أصفيائه وأهل بيته الذين لا يستطيعون مع معرفتهم الوثيقة بدقائق حياته تفصيلاً، أن يفوتهم بحال من الأحوال إدراك ما تنطوي عليه أساليب الأفّاكين في نفاقهم، من إسدال السجف والأستار على ما يأتون من أعمال تتناقض حقائقها في سريرتهم مع ما يدعون إليه جهراً»[1].

وأما المظهر الثالث من مظاهر خلقه ﷺ فهو تميزه بالقوة والثبات، ونقصد بقوة خلقه التوجيه المحكم الرائع لما كان يملكه من الطاقات الجسدية والعقلية والعاطفية مثالياً متوازناً؛ إذ كلما كان الإنسان أقوى جسماً، وأصح نفساً، وأعظم حيوية، وأشد ذكاء، كلما احتاج لتزكية نفسه وتسديد خطاه إلى أخلاقية أشد تأثيراً وأوسع تناولاً وأصلب كظماً، لأن الخلق هو بمثابة صمام الأمن في وجه طاقات الإنسان وميوله الدفاقة، ولما كان ﷺ قد بلغ من كل طاقة مداها ونهايتها بشهادة معاصريه وواصفيه ومؤرخي حياته، وبدلالة مكاسبه المتميزة وتحويلاته البرة في مجالات السياسة والمال والفكر والشعور وكل أمور الحياة. .وفي وقت قصير، كان ولابد أن يكون ذلك الخلق الذي يوجِّه تلك الطاقات في كيانه خلقاً عظيماً قوياً لا يهتز ولا يضطرب في

(1) الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ص: 311.

التعامل مع إمكاناته المتعددة، ثابتاً لا يتميع ولا يتغير بفعل الانفعالات العارضة وردود الفعل المعاكسة والظروف المختلفة. . . وهكذا كان.

فصدقه ﷺ مع نفسه ومع الناس وجّه فكره وعصمه من الانقياد لحسابات أرضية؛ إذ أن شدة الفكر قد تزين للإنسان الطمع والخداع في سبيل تحقيق مراميه، ولكنه مع فكره النافذ ظل ملتزماً بأخلاقياته، فلم يخلف وعداً، ولم ينقض عهداً، ولم يعرف عنه سوء!.

وعفافه كظم قواه الحيوية ووجهها في داخل منهاج ثابت وهو الزواج الشرعي، فلم تلمس يده يد امراة لا تحل له؛ إذ كان يمتنع من مصافحة النساء [غير المحارم]، ولم يَخْتَلِ بهنّ، وحرَّم الدخول عليهن.

وإقدامه «شجاعته» لم تهتز في حالات قلة النصير، وغياب السند، وبعد الأمل.

وهو لم يتغير بين أيام العيلة والغنى.

وتواضعه لم يغب ولم ينحسر بعد بلوغه أوج قوته وانتصاره. .

ورحمته بالإنسان لم تفارقه تحت أعنف ردود الفعل التي جوبه بها من جانب المتعاملين معه.

وعدله لم يتذبذب فهو لا ينطق عن الهوى الذي يدفع غيره إلى الميلان مع القريب، والتنكر للمسيء، والانتقام من العدو.

ونذكر فيما يلي بعض الأمثلة على قوة الخلق النبوي وثباته:

1 - تقواه بين أيام الابتلاء بالضراء والسراء «الانفتاح»:

لقد بقي في مستوى معاشي محدود يرجوه، حتى بعد انفتاح الدنيا على المسلمين، بمتاعها وزينتها، وإلى آخر لحظة من حياته، روى البخاري عن عمرو بن الحارث: «ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً ولا

عبداً ولا أمة ولا شيئاً، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة»[1].

وتعلن أزواجه الإضراب الجماعي عليه للحصول على توسعة نسبية، ولإلجائه إلى تغيير نمط حياته، فلا يتزحزح عن موقفه قيد شعرة بل يصبر وينتظر، حتى أنهي الإضراب بآية التخيير وبما يوافق خطة النبي التقشفية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: 28-29]، إما البقاء معه والصبر على معيشته وانتظار أجر الآخرة، وإما اختيار زينة الدنيا، ولكن بعيداً عنه! فهل هذا خلق من يريد الدنيا بعمله؟ حكّموا العقل في هذا الأمر.

إن بعض المتميزين قد صبروا على شظف العيش وقسوة الحياة وضيق ذات اليد، وألزموا أنفسهم وأهليهم وشعوبهم نمطاً معيشياً يتسم بالتقشف والبساطة، أو حرموا أنفسهم وعوائلهم ومحبيهم من ألوان النعيم ووسائل الراحة ورغد الحياة، ولكن ذلك الحرمان كان موقوتاً بظروف اقتصادية أو سياسية عسيرة واستثنائية، فلما انكشفت الفتن، وزالت الأسباب، وانتهت أعوام المرابطة، عاد الجميع إلى حياتهم العادية، يعبّون من اللذات عبّاً وكأنهم يعوضون عما فاتهم أيام الحصار. وتزول من الذاكرة بعد ذلك دواعي الزهد، وتغيب الصور الأليمة لفترة البلاء في أعماق النسيان، ولولا الذكريات والأصداء، وأوراق التاريخ، وأحاديث الركبان، لما بقي لتلك الأيام من خبر

(1) رياض الصالحين، ص: 226، حديث صحيح رواه البخاري عن عمرو بن الحارث، وانظر من ص: 219 إلى ص: 246 منه. الحديث وقد رواه في الأدب المفرد ص: 46، وقد ورد في صحيح ابن خزيمة في باب الوصية بالحبس من الضياع والأرضين. للتحقق راجع طبعة المكتب الإسلامي بتحقيق مصطفى الأعظمي، المجلد 4 ص: 120.

ولا أثر. . .فما كان للبشر العاديين، سوى الأنبياء والمرسلين عليهم السلام خصوصاً وبدرجة أدنى من تابعهيم من الصالحين أن يصبروا على حرمان النفس من شهواتها المشروعة دونما دافع قريب أو باعث اجتماعي ظاهر، أما حرمان النفس والأهل الأقربين من زينة الدنيا ورفاهية العصر ونعومة العيش أيام السعة وإقبال الخيرات وتدفق المال، وبعد معاناة متاعب الجهاد، وتكاليفه في النفس والمال والوقت، والصبر على ذلك لعشرة أعوام تزهو بالفتح، وتنتعش بحركة الحياة المنفتحة، فذلك ما لا يقدر عليه إلا نبي يعلم علم اليقين أن ما أعد له من مقام خير وأرفع وأبقى وأثبت، من زخرف الدنيا الصغيرة ولذاتها التي يتسابق في نوالها وضمها من يجعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه ونهاية أمله.

2 - شجاعته الفريدة مع تقطّع الأسباب:

إذا ما لاحظنا مواقفه في المواجهات وجدنا أنها شاهدة على نبوته وصدقه في دعواه وبعده عن الادعاء والافتراء أو التغرير بالناس ابتغاء عرض من الدنيا قريب. لقد كان ﷺ: أشجع الناس[1]. انظر هذا الموقف من مواقفه: كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلقٌ بالشجرة فاخترطه، فقال: أتخافني؟ قال: «لا»، فقال: فمن يمنعك مني؟ قال: «الله»[2].

(1) رواه البخاري برقم 2908، كتاب الجهاد والسير، باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق، ومسلم برقم: 2307.

(2) متفق عليه، رواه البخاري كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع برقم: 4125، ومسلم برقم 843، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف.

جالسٌ في ظل شجرة وحده، تصدى له فارس مجهول ليفتك به على غرة، ولم ينتبه إلا والرجل قائم على رأسه، والسيف مصلّت بيده، يلوّح به، ويستغل الفاتك الفرصة ليشمت بالنبي ﷺ ويستصغر شأنه قبل أن يضربه الضربة القاضية، فقال له ساخراً: «من يمنعك مني؟». وكأنه كان يتوقع منه ﷺ أن يرتمي مرتجف الأوصال، متذللاً، طالباً من خصمه الإبقاء على حياته... ولكنه ﷺ لم ترعبه المباغتة الظالمة، ولم تفارقه سكينته لتجرده من السلاح، بل قال بكل ثقة «الله!»، إنها النبوة وعزمها في أحرج اللحظات المصيرية، ولا تستمد معينها من الأسباب الظاهرية. وله في الحرب مواقف أخرى لا نحصرها.

3 – تواضعه:

كان النبي ﷺ لا يتكبر على الناس، ولا يتميز عنهم بلباس خاص، حتى كان الغريب يدخل مجلسه، فيحدق في مظاهر الجالسين، وهيئاتهم، وشاراتهم، علّه يهتدي إليه، فيسأل الآخر: من منكم رسول الله؟. لم يغلق على الخلق أبوابه، ولم يسيّر الحرس وراءه بعد أن عصمه الله من أعدائه، ملأت طلعته القلوب والأبصار، ولكن تواضعه استكثر عليه أن ينتشي باستيلاء الخوف منه على مشاعر الناس، فكان يبادر ببيان هويته البشرية، وبساطة ماضيه، لتزول الفواصل النفسية بينه وبين محدثه والمتعاملين معه، يقول الله له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]. يأبى مظاهر التعظيم الشكلية المتعارفة؛ فيمنع أصحابه من القيام له أو الإطراء عليه، ولا يأنف من مزاولة أعماله المنزلية وقضاء حوائجه، ولا يشعر بأي حرج في مخالطة جماهير الناس مهما كانت مستوياتهم الاجتماعية والمالية، فكان يزورهم، ويلاطفهم، ويجاملهم، كسفت الشمس يوم مات ولده إبراهيم فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فخطب رسول الله ﷺ فقال: «**إن الشمس والقمر آيتان**

من آيات الله ﷻ لا ينكسفان لموت أحد أو حياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبّروا، وصلّوا وتصدقوا»[1].

واحذر من أن تظن أن أخلاقياته الرحيمة الودود التي استأنس بها أهله وصحبه كانت وحيدة الجانب، سلبية، منبعثة من ضعف كامن في شخصيته، وليدة نمو أحادي في عواطفه الرقيقة على حساب صلابة نفسه وتماسكها وثورتها؛ إذ أن حياته ملأى بالمواقف الإيجابية والعلو الفذ على قوى الباطل المستحكم، ولقد انطوى قلبه الطاهر على رصيد غني من الرغبة في التطوير أو التغيير.. راسل ملوك العالم ورؤساءه، وواجههم بالحق، وحذرهم من سوء المصير إن لم يستجيبوا لدعوته، دون خوف على دولته الفتية النامية من اجتماع كلمة العالم على حربها وإبادتها.

ولا تحسبنَّ أنه كان مندفعاً لتكلف الخلق الحسن لتكثير أتباعه وبقاء مودة أشياعه، حتى يتمكن من أمره ويبلغ السيادة؛ فقد رافقه هذا الخلق إلى مدارجه حين غدا رئيس الدولة بلا منازع، علاوة على كونه دائماً في السراء والضراء نبي الأمة ﷺ، تحرسه القلوب، وتنفذ أمره الجموع، وتنطلق الطاقات بإشارته وإرادته دون معارضة! بل نستطيع أن نقول: أنه كان في أدعى الحالات والمناسبات إلى الفخر أقرب إلى التواضع.. فحين دخل مكة فاتحاً ورأى مشهد المسجد الحرام الذي طال شوقه لدخول رحابه حتى كان يحلم بذلك، طأطأ رأسه وخفضه، لا خشية أن يصطدم بأقواس نصر أو أكاليل زهر، إنما ليومىء للسجود شكراً لخالقه... فهو لايريد علواً في الأرض ولا فساداً؟. وعفا عمّن حاربه.

ولم تعزله عبادته عن الناس أو يفخر بها عليهم، فقد كان يصلي الليل

(1) متفق عليه، البخاري، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف برقم: 1044، ومسلم: 901.

«حتى ترم قدماه»[1]، ولم تشغله عن حياته العائلية ومقتضياتها فقد: «كان في مهنة أهله فإذا حَضرَتِ الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة»[2].

4 - حلمه وعفوه:

أما حلمه فقد تجاوز الحدود المعهودة لهذه السمة بين الناس، فلكل إنسان مهما رحب صدره ولان قلبه ورق درجة معينة من الصبر على الأذى المتعمد كماً ونوعاً ووقتاً، يثور بعدها وينتقم لنفسه، بل كلما كان حلم الإنسان أكثر وأوسع وأجمل، كان غضبه وانتقامه أشد وأوجع، لذلك يقال: «اتقوا غضب الحليم»..

أما الرسول ﷺ فقد كان حلمه يتعاظم كلما أغضب.. قال الله سبحانه فيه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].. ومن حلمه صبره على عبد الله ابن أبيّ على إساءته، وعفوه عن أسرى بدر.

خلق النبي ﷺ مع النساء

من الشبهات التي تثار حول الرسول محمد ﷺ والإسلام بشكل عام «تعديد الزوجات» كحكم وواقع، وهذه الشبهة لها خلفيّات متعارضة، إحداهما: تمثّل النظرة الكنسيّة التي ابتدعت الرهبانيّة، وجعلت المثل الأعلى الخلقي للإنسان الترفّع عن الحياة الدنيا وشهواتها، والتأثّم من التمتع بها، مع عدم رعاية المثل المسيحي الذي أُبرزَ في الماضي لتخفيف عنفوان الزينة على

(1) رواه البخاري، كتاب أبواب التهجد، باب: قيام النبي الليل حتى ترم قدماه، 1130، وفي رواية مسلم (حتى ورمت قدماه) برقم: 2819.

(2) رواه البخاري.

إنسان بني إسرائيل في عصر المسيح عليه السلام . . . والخلفيّة الثانية: كراهية الزواج عامة مقاربة لحدود الله، بل عدم الإقرار بثنائيّة «الحلال والحرام»، وتأويلها نفعيّاً اقتصاديّاً، أو لا شعوريّاً، أو اجتماعيّاً، أو أسطوريّاً. . ومن ثم فإن هذه النظرة تفسّر الواقع الزواجي التاريخي كلّه - دون استثناء حياة الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين - تفسيراً شهويّاً خالصاً. . والخلفية الثالثة: زعم الرأفة بالنساء لما في التعديد من عذاب للأولى من النساء.

أمّا الخلفيّة الأولى فندع د. نظمي لوقا يتحدث عن أصلها وملابساتها، ومضاعفاتها النفسيّة والاجتماعية فيقول: «أشاعت المسيحيّة حول «الزواج» جوّاً خاصّاً خلاصته أنّ العفة أو الرهبانيّة هي الأصل، ومن لم يستطع ذلك فليتزوج، فكان الزواج رخصة يرتخصها من لا مندوحة له من ذلك، والسلام!، ولا شكّ أنّ هذا المفهوم مرتبط بفكرة الخطيئة الأولى، واعتبار أنّ العلاقة الجنسيّة شرٌّ في ذاتها ولذاتها، وأنّ الجسد كلّه عورة بكلّ رغائبه وطلبه للطيّبات من الدنيا، فهذا الترهّب، مع النسك، والصيام المسيحي، والعزوف عن أطايب الأدام، أدلّة على الضيق بالبدن، وازدرائه، وصحبته على مضاضة، والنظر إلى مطالبه وإلى زينة الدنيا جملةً، نظرة عداء وخصومة. حياة لا طمأنينة فيها، ولا قرار، وإنّما هو الصراع المستمر والقلق المستمر، الذي تفسد به الدنيا، وتعيا به النفس. وقد كشف لنا علم النفس الحديث عن العلل والآفات المخرّبة التي تسمّم ينابيع الحياة بسبب الشعور بالتأثّم من الجسم ورغائبه النوعيّة»[1].

ويبيّن أنّ الإسلام حين أحلّ تعديد الزوجات بشرطه الخلقي فإنّه لم يرد به مستوىً خاصّاً من البشر، أو مرحلة تاريخيّة دون أخرى، أو وسطاً محدداً وفضاءه الجغرافي، إنّما شرعه الله كصمّام أمان لحياة الناس في كلّ

(1) محمد ﷺ الرسول والرسالة، د. نظمي لوقا، ص: 75.

احتمالاتها، ومتغيّراتها، وتنوّعاتها... فالاكتفاء بزوجة واحدة قد يطيقه ذوو العزم، وما لهؤلاء وحسب جُعلَ هدى الدين: «ونظرة إلى واقع الحياة البشريّة في تاريخ مجتمعاتها الغابرة والحاضرة، تطلعنا على تعدد النساء في حياة الرجل الواحد، سواءً جهراً، أو سرّاً، وسواءً برخصة من القانون، أو الدين، أو حتف القانون والعقيدة، وما من عاقلٍ يفضّل التعدد بغير رخصة على التعدد برخصته، فإنَّ أثر الشعور بالإثم والاختلاس على السلوك البشري بعامة أثرٌ خبيث يسمّم حلاوته، ويعكّر صفاءه الذي لا تقوم السعادة الروحيّة والنفسيّة بغيره... فضلاً عمّا في العلاقات المختلسة من إضرارٍ بالمرأة، وإفسادٍ لحياتها لا حيلة فيها.. ثم إنّ حياة البداوة والريف غير حياة الحضر؛ ففي الريف والبادية يعزّ القوت أحياناً، ولا سيّما على المرأة، وقد يكون في عدد النساء زيادة عن عدد الرجال؛ فلا يُصان عرض المرأة، ولا تستقر معيشتها ماديّاً ونفسيّاً إلا إذا كانت في كنف رجل، وعندئذ لا حيلة إلا في التعدد، لأنّه الحل السليم الوحيد، أو هو أسلم أساس لجماعات هذه حقيقة ظروفها»[1].

وما حال إنسان يمارس الحياة: «حزيناً، مستخزياً كلّ نبضة سرورٍ بها، وكلّ خلجة استمتاع فيها، وكلّ انتفاضة طبيعيّة إليها؟»[2].

أمّا الإسلام فهو يصلح الإنسان ونفسه التي بين جنبيه بشريعة موفّقة بين الدين والدنيا[3].

إنّه: «لا يفصل بين حياة الروح وحياة الجسد، حيث لا انفصال بينهما في واقع الجبلّة التي جبلها خالقها الحكيم الخبير»[4]، وبذلك: «يستجيب

(1) محمد ﷺ الرسول والرسالة، د. نظمي لوقا، ص: 68.
(2) المصدر نفسه ص: 75.
(3) المصدر نفسه ص: 77.
(4) المصدر نفسه.

للحياة في طلاقة وبراءة من التأثّم، ويحرر البشر من الذعر والخزي وعقدة الإثم الشوهاء التي كبّلتهُ»[1].

يقول المستشرق «فريتجون شيون» الذي درس الإسلام واليهوديّة والمسيحيّة دراسة عميقة عن نظرة الإسلام إلى طيّبات الحياة بشكل عام وإلى «النساء» بشكل خاص، وما يتصل به من تعديد الرسول ﷺ لأزواجه:

«إنّ شفافية الأشياء شفافيّة «ميتافيزيقيّة»، وأعمال التأمل التي تقابلها، تجعلان من الممكن أن ترتدي العلاقة الجنسيّة طابع أهليّة التقدير داخل إطار الشرعيّة المتبعة، أي إطار التوازن النفساني والاجتماعي، وهذا ما يثبته وجود ذلك الإطار على كلّ حال، وبتعبير آخر، ليست المتعة وحدها هي المهمّة باستثناء هاجس المحافظة على النوع، بل هناك مضمونها النوعي ورمزيّتها الموضوعيّة والمعيشيّة في آنٍ معاً؛ فالقاعدة الخلقيّة الإسلاميّة تمثّل دائماً في الواقع البيولوجي، لا في المثاليّة المتنافية مع الإمكانيّات الجماعيّة والحقوق التي تفرضها القوانين «الطبيعيّة»، والتي لا سبيل إلى جحدها»[2].

ويقول عن زواج الرسول ﷺ: «كان للزواج بالنسبة إلى النبي ﷺ طابع الطهر «الروحاني»، كما كان لكلّ شيء في حياة مثل هذا المخلوق، بسبب الشفافيّة الميتافيزيقيّة التي تحفل بها الظواهر الخارقة، وإذا نظر إلى زيجات النبي ﷺ من الخارج، تبيّن أنّ معظمها كان بهدف سياسي - للسياسة هنا معنى «قدسي» مرتبط بإقامة ظل «مدينة الله» على الأرض - وأخيراً يكفي أنّ محمداً ﷺ قد ضرب أمثلة عدّة عن تقشّف طويل الأمد، وبخاصة في شبابه الذي يفترض أن تكون فيه الشهوة أقوى ما تكون، لكي ينجو من الأحكام السطحيّة الصادرة بحقه»[3]، والحق أنّ عفافه لا مراءاة الناس والنجاة من

(1) محمد ﷺ الرسول والرسالة، د. نظمي لوفا، ص: 77.
(2) كيف نفهم الإسلام؟ فريتجون شيون، ص: 30.
(3) المصدر نفسه، ص: 102 - 103.

حكمهم قد حفظه من السوء والفحشاء.. ومن ذلك ما زعمت «فاطمة المرنيسي» أنّ النبي ﷺ كان يبحث عن الجنس![1] ثم لم تجد أمثلة على ذلك إلا ما أسمته بـ: «دعابات عائشة، ونزق وحدّة وتساؤلات أم سلمة!»[2] كما زعمت، وكأنّ الدعابة منكرة أو مهينة!.. أمّا تساؤل أم سلمة الذي سمّاه الله سبحانه «تمنّياً»، ونُزّلت فيه آيةٌ نهت عن الاسترسال في التمني، فلم يكن نزقاً أو ثورة دينيّة سياسيّة على ما سمّته باستغلال «النص المقدس».. بل كان تساؤلاً قبل تنزل الحكم الديني في أمر فكرت فيه.

لقد أثار بعض الكتاب تشويشاً وتحريفاً لزواج النبي ﷺ، فمنهم من فسّره سياسيّاً؛ أي جعل النساء مرتهناتٍ للعمل السياسي على حساب حقهنّ، ومنهم من فسّره شهويّاً بجعله مفصولاً عن صلة المودة والرحمة، ومنهم من أبرز الأبعاد الاجتماعيّة والإنسانيّة في بعض الزيجات.

أما الخلفية الثانية فتتمثل فيما فسر به المفسرون الشهوانيّون التعديد لاتباعهم للشهوات وتفسير كلّ شيء بها، أو لنظرتهم المتزمتة التي تجعل الشهوات رجساً، لم يجدوا في زواجه ﷺ سوى الشهوة؛ فهم يستنكرون أن تجتمع نساء مختلفات سنّاً ولوناً وجنساً في بيتٍ واحد، ولا يجدون تفسيراً لذلك سوى أن يُزعم بأنّه ﷺ كان باحثاً عن المتعة الملوّنة، أو راكناً للنساء كما زعم صادق العظم وبعض المستشرقين.

إنّ هؤلاء الكتّاب يزعمون أنّه ﷺ كان يوجّه وقته نحو عالم من الحريم المكفوف عن النشاط، وأنّه مستغرقٌ في دنيا نسويّة خالصة، كدنيا ألف ليلة وليلة وعالمها المتخيل، فهم يبحثون عن الروايات التاريخيّة الساقطة والمشاهد اللاهية المتأخرة في تاريخ بعض المسلمين وفي عصر الركود،

(1) الحريم السياسي، فاطمة المرنيسي، ص: 145.
(2) المصدر نفسه.

ليسقطوها على حياة النبي ﷺ وزواجه، وهو بريء من ذلك، دون تقويم وتحقيق، إنّهم يريدون أن يسجنوا رجالنا الكرام في مشهديّاتهم الأسطوريّة، ولا يأذنون لنا أن نزيل أثر المخيال والتحريف المتعمد التي غطّوا بها على حياتهم.

ولذلك نقول في الرد على هؤلاء الكتاب:

1 - إنّ الرسول ﷺ قبل النبوة كانت له لياقة جسديّة، ويمتلىء حيويّة ونشاطاً، وقد رافقته هذه السمات حتى قبيل وفاته، لكنّه مع ذلك قد وازن بين دواعي قوته وعافية جسده، وبين فطرته الخلقيّة، مع حفظ الله له من كلّ ما يشين؛ فلم يخضع لجاذبيّة النساء، ولم يُعرف عنه سوء، ولا ما يُسمّى بمغامرات عاطفيّة، كما أنّه لم يتزوج إلا في الخامسة والعشرين، وقد تزوج امرأةً - هي أمّ المؤمنين خديجة - أرملة في الأربعين، ممّا يظهره بعيداً عن الحرص الشبابي التقليدي على المواصفات الشكليّة الجماليّة كالبكارة والنضارة.. ولو علم أعداؤه أيّة علاقة غير شرعيّة لقذفوه بها، وهم الذين افتروا عليه بشتّى التهم.

2 - إنّ الرسول ﷺ قد بقي مع زوجة واحدة وهي أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها حتى بلغ الثالثة والخمسين من عمره، وهي تكبره بخمسة عشر عاماً، وهذا الوقت هو وقت النشاط الجسدي عند الإنسان السويّ، ثمّ لمّا تزوج نسوة أخريات كانت سائرهنّ ثيّبات - مطلّقات أو أرامل - باستثناء عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها.

3 - إنّ التصوّر الحريمي«الترفي» الذي يسقطه المستشرقون على البيت النبوي تنقصه العلميّة، فهو لم يكن موجوداً أصلاً في هذا البيت الذي كان ذو سمة هندسيّة بسيطة على شكل «حجرات» مبنيّة من مادة أوليّة «التراب»، ولم تحتو على مظاهر وزخرف ونقوش جماليّة وإضاءة باهرة كما في قصور

الباحثين عن المتعة والترف، وقد اشترط عليه الملأ المعارض للإيمان به أن يكون له بيت ذهبي، وجنّة من الأشجار والأزهار، وأن يملك قوة خارقة ليؤمنوا به، فلم يسعه إلا أن يعلمهم بأنّه بشرٌ مثلهم، وليس بشراً ساعياً نحو الأشكال والمظاهر الترفيّة: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 93].

4 - ولقد وصل مستواه المعاشي مرة إلى حدّ أن تطالب أمهات المؤمنين مرة بزيادة مخصّصاتهنّ وتحسين مستوى معيشتهنّ؛ فتنزّل قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: 28-29] فقد خُيّرت أمهات المؤمنين بين التزام حياة بعيدة عن الزينة ومظاهرها مع الرسول ﷺ، أو الذهاب بعيداً عنه لأنّ مقتضياته الرساليّة لا تسمح له بالمزيد.. ولو كان الرسول ﷺ باحثاً عن المتعة المجردة بزواجه لأنشأ أنواعاً من الزينة والرفاه في بيته، وجلبها من البلاد البعيدة، ولرفع مستوى معيشة أهله، ولم تُلجأ أزواجه إلى هذا الامتحان العسير.. ثم إنّ الرسول ﷺ وهو لا يهجع في الليل إلا قليلاً، قائماً بين يدي ربّه، أوّاباً، منيباً إليه، وفي النهار يحكم في مؤسسات الحياة الإيمانيّة والخلقيّة والسياسيّة والماليّة والعسكريّة والاجتماعيّة لأمة أخرجت من مستوى قريب من الصفر في بعض الأمور، بعيداً عن أجواء الخمر وعوالمها الدافعة إلى اللذات... هل يُظن به أن يكون مستغرقاً في البحث عن الشهوات وتنويعاتها وألوانها؟

إنّ مسألة «تعديد زوجات النبي» لم تُثر في القرآن كإشكاليّة أو شبهة، ولم تكن ملصقاً عدائيّاً يُلْصقه أعداؤه بحياته في زمن الرسالة، بل إنّها أنشئت في العصر الحديث بعد إخضاع الباحثين الغربيّين أنماط الحياة الإسلاميّة للمثل

الغربي للحياة العائليّة؛ بجعله أفضل مثل، ووزن كلّ الأشكال الموجودة المتصلة بهذه الحياة من زواج وطلاق وشريعة ميراثيّة وخلقيّة بميزان «ملّة الغرب» ذات الجذور التاريخيّة الخاصة والملابسات المحدودة، بينما الإسلام له شريعته في الإيمان والخلق والاجتماع الخاصة به، ولا يتحتّم أن تطابق مثل هذه الحضارة، وليس من العدل أن تعرض خصوصيّات هذا الدين وفق مذهبيّتها القائمة على الصراع والمنافسة بين الصنف الذكوري والأنثوي في مجال العائلة، والتي تفترض دائماً إشكاليّات ثنائيّة حادة تعالج بتوفيقات بين النقائض الجدليّة، ولذلك يقول R.V.C Bobdley:

«إنّه لا داعي إلى قياس حياة محمد ﷺ الزوجيّة بالمقاييس الغربيّة، ولا الحكم عليها من وجهة نظر التقاليد والقوانين التي سنّتها المسيحيّة في الغرب، فلم يكن أولئك الرجال العرب غربيّين ولا مسيحيّين، إنّما نشأوا في بلاد وفي عصر كان يسود فيه نظامهم الخلقي الخاص، ورغم كل ذلك لا مبرر لتفضيل النظام الخلقي الأمريكي أو الأوروبي على النظام الخلقي العربي«الإسلامي».

إنّ الغربيّين لا يزالون في حاجة إلى بحث دقيق وتمحيص كبير لتفضيل نظامهم الخلقي وطريقة حياتهم على غيرها، فعليهم أن يتجنبوا الطعن في ديانات أخرى»[1]، وقد رأى Alwin Tofler ألفن توفلر في كتابه «صدمة المستقبل» Future Shock أنّ النظرة الدونيّة لتعدد الزوجات في الغرب لا تقوم على أسس علميّة ثابتة، أو فطرة إنسانيّة سليمة، إنّما هي ذات سمة خياليّة عاطفيّة، وقد أنشأتها مؤثرات إعلاميّة ودعائيّة، ويمكن أن تزول بفعل تغير الاتجاهات والأوضاع التربويّة والماليّة والاجتماعيّة.

وتقول زيغرد هونكه: «إنّ من الطبيعي أن يجمع المسلم بين الروح

(1) السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، ص: 414.

والجسد، بين الآخرة والدنيا، بين الدين والحياة، وأن يوفّق بينهما؛ فالجمال الحسي و«الروحانيّة»، ثم الأناقة والمهارة الحربيّة، أو العناية بالمظهر ونظافة الجسم وأداء الواجبات الدينيّة، كلّها سويّة لا تشكّل أيّ تناقض، عكس ما هو عليه بالنسبة للتفكير المسيحي الذي يمدح ويذم، يطري ويقدح، حسب مقياس دقيق من المتناقضات في نظره، والتي لا يقبل فيها أيّ تساهل أو هوادة»[1].

وإنّ المسلم: «لا يرى تعارضاً بين تلك الروحانيّة الرفيعة، وبين الاستمتاع بملاذ الحياة وأطيابها وزينتها؛ لذا كان الإسلام دائماً أقلّ عرضة للوقوع في تلك التيارات الماديّة، في تلك الطرق الملتوية للعقليّة الإلحاديّة المتطرفة من عالم الغرب المسيحي الذي كان دائماً ينتقل بين النقيض ونقيضه»[2]. وهي تقول بأنّ: «السلوك الإنساني فيما يتعلق بدور الجنس في الحياة وفهم العلاقة بينهما واستيعاب الذات بالنسبة لكلّ من الرجل والمرأة، لا يمكن أن يقُتبس، كما لا يُستعار ثوبٌ غريب ويُلبس، أو تُستعار أداة وتُستخدم على جهلٍ بها، فلا بدّ أن يكون لهذا الثوب أو تلك الأداة طابعها المميز الذي يفرض حركة مناسبة أو تصرفاً ملائماً»[3].

أما زعم أن الأولى من النساء تتعذب بالزواج عليها فهو عذر غير محكم للتنفير من التعديد، فالحياة الزوجية حتى مع واحدة لا تخلو من أذى لهما أحياناً، بل الحياة عامة وما كلفنا الله به من أمر الدين لا يخلو بعضه من ألم وأذى بل ما هو أشد منهما، وأن التعديد قد قام به خلفاء راشدون ومؤمنون سابقون.

---

(1) التوجه الأوروبي إلى العرب والإسلام، زيغرد هونكه، ص: 155.
(2) التوجه الأوروبي إلى العرب والإسلام، زيغرد هونكه، ص: 224 - 225.
(3) المصدر نفسه ص: 253.

ومن أسوأ ما كتب عن النبي ﷺ مضمونياً، وأردؤه فنياً، ما أفكه «سلمان رشدي»وما افتراه في روايته«آيات شيطانيّة» على الرسول ﷺ وأزواجه الطاهرات «أمهات المؤمنين» اللاتي قال الله فيهنّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].

وما كتبه هذا الكاتب هو استنساخ بذيء وظالم للإفك الذي أفكه المنافقون من قبل لإيذاء الرسول ﷺ، أراد به أن يكتسب الشهرة وليثبت انسلاخه عن دينه... إنّه من أحطّ من أقحم نفسه في إعادة مسلسل الافتراء والتشبّث بالباطل والتزييد على ما روي، ولكن بلغة يترفّع عنها الشارع ببذاءته؛ فهو عانى من عقدة الشعور بالنقص؛ فأراد أن يظهر على أهل الغرب لا ببراءة اختراع، بل بالبراءة من رسولٍ كريم لم يخل كتاب منزّل من ذكره والتبشير به.. والحق أنّه انزوى في زاوية النسيان، فلم يُعط جائزة نوبل، ولا غيرها، لفجاجة روايته وطعنها وسوء أدبها، لكنّ كلّ ممنوع قد يكون مرغوباً، كما كان خطابه هشّاً ضحلاً أخذت عليه شتى المآخذ.. فالدين الحق الذي دعا له الرسول ﷺ كان حرباً على الشيطان الذي أمر سلمان بهذا الافتراء والأذى للرسول ﷺ، فيستحق بذلك لعنة تلاحقه.. وسور عدة تأمر بمفاصلة المشركين ومنها سورة الكافرون والنجم فكيف يماريهم ويداهنهم؟ ولم ينكره خلقه حتى أعداؤه.

وإذا كان بعض المتطاولين لم يسلموا من عقدة الدونيّة وأرادوا أن يشتهروا بالهجاء، وكتبوا ما ينبو عن الذوق، فقد انحسر ما يفترون، وما وجدنا من يقيم دولة ويظهر أمة يحسب عليها ما يقارب مليار نسمة بهذا الوصف الذي يزدريه به والإفك الذي رماه به، ومنهم آباء سلمان الذين أسلموا.

وكيف يدّعي إنسان الإيمان بنبوته ﷺ ووحي الله سبحانه له في القرآن

الذي ذكر اصطفاءه واختياره له، وإذهاب الرجز عنه وأهل بيته، وأمره للمؤمنين بطاعته وحبّه وتعزيزه وتوقيره، وعدم تقديم اقتراحات بين يديه، والصلاة والسلام عليه، وتلقّي منهاج الحياة منه.. ثمّ يسيء إليه ﷺ؟.. كيف يزعم الإيمان به أحد، ثمّ يرميه بما لا يرضاه لنفسه إنسانٌ كريم.

وقد ذكرت المستشرقة والعالمة الألمانيّة «آن ماري شميل» عام 1995، والمعروفة بنشاطاتها العلميّة والبحثيّة، خلال الحوار الذي أجرته قناة التلفزيون الأولى معها: «أنّ على الغرب أن يتعامل مع الإسلام بالصورة التي تتناسب وشأن هذا الدين العالمي العظيم، وعلى الغرب كذلك أن يأخذ الدين الإسلامي بعين الجدّ»[1]، كما أكّدت: «أنّ موضوع ربط الإرهاب بالإسلام الذي تطرحه أجهزة الإعلام الغربيّة ناجمٌ عن جهل الغرب بالدين الإسلامي، أو عدم إدراكه الصحيح لهذا الدين القيّم»[2]، وعن رأيها في كتب سلمان رشدي وتسليمة نسرين: أجابت بأنّ ما زعماه من افتراء خالٍ من الحق، بعيد عن الواقع، وإنّهما قد جرحا مشاعر المسلمين بافتراءاتهما وكتبهما المضلّلة[3].. وكتب مصطفى طلاس في مقال بعنوان: «الخارجون من جلودهم» منكراً تصوير النبي محمد ﷺ اعتماداً على رواية معلومة البطلان إسناديّاً، نقلها الطبري وفقاً لمنهجه الروائي الذي كان يفوّض أمر التحقيق أو التوثيق لمعلوماتيّة القارىء في عصره، والذي كان له إلمامٌ مناسب بالأسانيد، وقدرة على تمييز درجات قوتها ووثوقيّتها.

وقد أراد بذلك ما افتراه سلمان رشدي على النبي ﷺ بزعمه أنّ ما أوحي إليه من الكتاب «آيات شيطانية»، وليست وحياً ربّانيّاً يوحى إليه، بناءاً على هذه الرواية التاريخيّة التي نقلها الطبري، والتي زعمت أنّ الشيطان قد داخل

(1) مجلة الطاهرة، العدد 64.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.

السياق التنزيلي لإحدى سور القرآن وهي سورة النجم ببعض الآيات التي تثني على أصنام القوم»[1]؛ ذلك بأنّ محمداً ﷺ: «لا ينطق عن الهوى كنبيّ ﷺ، لايستطيع الشيطان أن يجعله يزلّ ويخطىء ليخرجه عمّا جاء به من تنزيه الله وتوحيده»[2]، وقد حسب ذلك من ذلك: «الدسّات اليهوديّة التي تبنّاها الجهلة من جهة، وشجّع بعض الحكّام عليها من جهة أخرى، ليجدوا لأنفسهم مبرّراً أمام الناس فيما يفعلون»[3]، وذهب عبدالرزاق عيد إلى أنّ سلمان رشدي قد تعامل مع الأمور الإيمانيّة بإحساس استشراقي لاحواري بل هتّاك، وأنّه وإخوانه الذين يسمّون بالمثقفين المنسلخين يؤذون الشعب ويصادرون أبسط حقّ له في الأمن الإيماني، ويهينون إحساسه وشعوره وما يعتز به أخلاقيّاً ودينيّاً، مع أنّ حق الإنسان في الأمن على إيمانه: «حقٌّ مشروع من حقوق الإنسان، وأنّهم يحطّمون هويّته الإسلاميّة لمنفعة مشروع حداثوي»[4] يؤصّل كما يقول جذور العقلانيّة الوضعيّة، ويرسّخ الهيمنة الحضاريّة للآخر، ويحول دون بعث الأمم المستضعفة وذلك:

«بتدمير الضمير القومي والوجدان الاجتماعي والمخزون النفسي والحضاري لإنساننا»[5]. . وحتى صادق العظم مع تقاطعه مع الغيب الإيماني قد فسّر عمل سلمان رشدي بأنّه عمليّة تجاوز مجموعة العقد النفسيّة والجماعيّة التي كان يشعر بها هذا الكاتب، وكانت تدفعه إلى الإسقاط للتحرر من شعورٍ باطنٍ خفي بالدونيّة وعدم الثقة بالدين الذي يحسب عليه. . . وإنّه في إطلاقه لأسماء أمهات المؤمنين على العاملات في حجاب «البيت النبوي» يشبه جيمس جويس الإيرلندي في فحشه، الكاتب الذي منعت روايته

(1) ذهنية التحريم، صادق جلال العظم، ص: 46.
(2) المصدر نفسه، ص: 310 - 311.
(3) ذهنية التحريم، صادق جلال العظم.
(4) المصدر نفسه، ص: 388.
(5) المصدر نفسه، ص: 389.

«عوليس» في عشرينات هذا القرن بتهمة ترويج: «مادة تخريبيّة كلّها فحش وخلاعة وفجور وإفساد في الأرض»[1] ووصف صاحبها سنة 1932 بالتجديف والاستهزاء بالدين. أهو التفسير الاستكباري الذي يستعلي على الناس جميعاً، ويصفهم بالانحراف في عقلهم وإيمانهم وخلقهم، ويسبّهم، ويؤذيهم، ويراهم منحطّين؟ أم هو الكسب المالي والنفعي الذي يدفع بعض من انسلخ عن آيات الله لعمل أيّ شيء في سبيل ذلك، ولحيازة الشهرة بضرب الطيّبين ومن فُضلوا من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام؟.

المهم أن نذكر أنّ كتابة مثل هذه الكتابات وغيرها من الكتب والصحف كما حدث في الدانمارك من رسوم ومسابقات استهزائية ساخرة لا يمكن أن يُسكت عنها بحجّة الحريّة الفكريّة والرأي الآخر.. وبعيداً عن جدليّة «المقدّس والمدنّس» وثنائيّته المعروفة في الفكر الغربي فإنّ الله له في دينه حدوداً لا يقاربها مؤمن، وللأنبياء عليهم السلام في الإسلام حقٌّ وكرامة وفضل لا يدانى، خصوصاً النبي محمد ﷺ الذي أرسل رحمةً للعالمين، وأنقذ الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وعدل الإسلام، ومن سمات أيّة شريعة تصلح الحياة أن تحفظ الأمن الإيماني للمؤمنين من الطعن والتهوين، فلا تأذن بمسّ أفضل الناس وفي مقدمتهم «الأنبياء» عليهم السلام في كرامتهم وأعراضهم.. ولقد حدّد الإسلام عقوبة زاجرة لمن يقدم على هذه الأمور التي تجرّىء الناس على قذف الأبرياء، وما ينشأ عن ذلك من تدمير للعلاقات الاجتماعية، فضلاً عن الوعد الإلٰهي بالعذاب الشديد لمن يؤذي الله ورسوله ﷺ.

قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: 4] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: 57].

(1) ذهنية التحريم، صادق جلال العظم، ص: 264.

إنّ أنديرا غاندي - وهي هندوسيّة - قد اتخذت في حينه إجراءات قضائيّة ضد سلمان رشدي لتأليفه كتاب «أطفال منتصف الليل»، بوصفه الروائي للحياة الدينيّة والاجتماعيّة والفكريّة في الهند، فحصلت على اعتذار عام من المؤلف والدار التي نشرت له، مع تحمّل الدار لنفقات القضيّة، وعلى حقّ حذف ما تراه غير مقبول في الطبعات الجديدة .

كما منعت الباكستان بيع وتداول كتاب «الخجل» أو الحرام لأسباب مقاربة.. فأحرى ببلاد المسلمين أن يُمنع فيها نشر مثل هذه الكتب التي تطعن في رسول الإسلام ﷺ وتقذفه وتشتمه، وتسحبها من الأسواق والمكتبات والمؤسسات.. فذلك من الحق العام الذي على المؤمنين أن يدافعوا عنه ممثّلين في أصحاب القرار؛ فالعدوان على هذا الحق أشد إيذاءً وخطراً من أشكال العدوان الماليّة والجزائيّة، خصوصاً حين يضعف الإيمان باليوم الآخر وثوابه وعقابه.. ولا يُفزع الناس إلا السلطان القاهر.. فالتشكيك والتهوين في الدين الحق يجعل الجاهلين يزدادون غيّاً، والمجرمين ظلماً، والشباب حيرة، والناس قسوة، ولا يبقى إلا التخويف بالقوة، وهي لم تشرع إلا لفئة محدودة من الناس.. فيتمزق الشعب، ويُحلّل الحرام، ولا يأمن الناس على أيّ شيء.. إذ لا يمكن أن يراقَب كلّ إنسان، في كلّ وقت، وكلّ مكان!!.

إنّ المجلات تنشر أخبار دعاوى يقيمها «الفنّانون والفنانات» عن سمعتهم الفنيّة والإنسانيّة، وكذلك غيرهم من الأصناف الوظيفيّة والاجتماعيّة، فلنبادر إلى إيقاف ما يؤذيه ويؤذي الله رب العالمين، فضلاً عن تهوين الالتزام الإيماني والخلقي حين يُشاع حديث الإفك عن أطهر الناس محمد ﷺ وأهل بيته الذي قال الله فيه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158].

وهذا الاتّباع لا بدّ أن يكون تفصيليّاً وأميناً، ولا يقتصر على مظهر من المظاهر أو شعيرة من الشعائر... كما أنّ من سمات الإيمان به الولاء القلبي، والحب الخالص له حبّاً يفوق على حب غيره، سواءً أكان حبّاً آبائيّاً، أو بنويّاً، أو أخويّاً، أو زوجيّاً، أوعشائريّاً، أو ماليّاً، أو حياتيّاً، وعكس ذلك آية على خروجٍ وفسقٍ عن الإيمان.

وليس من شأن المؤمن تقديم اقتراحات بين يديه، وهو لم رُفع صوت عليه حيّاً أو ميتاً كما قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: 1-2].

ومن مقتضى الإيمان به تعزيره، ونصره حيّاً أو ميتاً، وتوقيره، وتقديره، ومنع الإساءة إليه وإيذائه ونشر الافتراءات الباطلة عليه: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: 9] ولإدامة الصلة الإيمانيّة والشعوريّة والقلبيّة والعمليّة معه أمر الله سبحانه بالصلاة عليه والسلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

وقد وعد الله سبحانه من يطيع الله ورسوله ﷺ بمعيّة الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، بينما سوف يندم من يلتزم مذاهب أخرى باطلة، أو يتخذ فلاناً خليلاً يحبّه وينجرف وراءه إلى اتجاهات تضليليّة أو مشبوهة أو نفاقيّة تبعده عن ذكر الله تعالى وطاعته وطاعة رسوله ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 27].

ثم إنّ الغرانيق التي بنى عليها سلمان رشدي وحيه الشيطاني والتي ذكرها كارل بروكلمان في كتاب «تأريخ الشعوب الإسلامية» بدون إسناد موثوق، إنما

تنوقلت عن الواقدي وهو ساقط الرواية وفق الموازين الحديثيّة الأكثر توثيقاً وتحرياً للصواب، فقد ذكرها الطبري المعروف بإيراد الروايات سواء كانت صواباً أو غير ذلك، تاركاً كما أسلفنا للقارىء ذي العلم بالتوثيق الحكم على صوابها.. وسور عدة تأمره بمفاصلة المشركين ومنها سورة الكافرون، وتنهاه عن المداهنة، فكيف يداهنهم؟.. وقد زعم «بروكلمان» أنّ الرسول ﷺ قد أدخل هذا الاسم الأسطوري في ثنايا الآيات في بداية الدعوة لكونها مرحلة بدائيّة ممّا سمّاه ب - «التطور الثقافي» للرسول ﷺ الذي لم يكن قد تحرر في زعمه تماماً من الرواسب الوثنيّة، لذا نؤكد:

1 - إنّ أسطورة الغرانيق لا تملك أصلاً روائيّاً موثوقاً.

2 - إنّ هذه الأسطورة تناقض ما أتى به هذا الدين وفي هذه السورة كذلك من قضايا إيمانيّة تدعو إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له ولا شفيع بدون إذنه، وينفي المزاعم الوثنيّة والأسطوريّة التي تجعل للأصنام أدواراً شفاعيّة تبجيليّة مستغنية، فكيف أجاز بروكلمان لنفسه أن يذكر في سياقه التاريخي هذه الرواية التي تختلف مع الحق الثابت في هذه المسألة، الحق في الدعوة إلى نبذ الأصنام والذي ورد في سياقات تصريفيّة متنوعة؟ كقوله سبحانه في سورة النجم نفسها عن هذه الأسماء الفارغة من الدلالة العلميّة الإلهية:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: 19-23].

3 - لقد بذلت محاولات كثيرة لفتنة النبي ﷺ عن بعض ما أوحي إليه، وقد كانت مشفوعة بعروض دنيويّة متنوعة، ولم تكن أشكالاً حواريّة وجداليّة

يستجيب الآخر فيها للحق إذا تبيّن، فلم يستجب لها، وتنزلت الآيات تضع الحدود الفاصلة بين الإيمان والشرك؛ فقد عرض عليه أن يعبد آلهتهم ويعبدون هم إلٰهه الذي دعا إليه، في تناوب زمني، ولكنّ الله نهاه عن هذه الفتنة الضارة التي يدعونه لها؛ فالدين الحقّ لا يحرّف لنفع ولا تكون له من قبل الأنبياء مساومة؛ قال الله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: 1-6].

وقد حذَّره سبحانه مرةً بهذا التحذير الشديد مع التخويف بأشكال مضاعفة من العذاب.

قال الله سبحانه: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: 73].

3 - ألم يكن الرسول ﷺ يفقد مصداقيّته الرساليّة إذا ما قدم آيات قرآنيّة ملبّسة بوحي شيطاني، وهو «حديث الغرانيق»؟ كما زعم بروكلمان عنها قائلاً: «ثم ما لبث أن أنكره وتبرّأ منه في اليوم التالي»[1]. . وكمثال آخر أنّ القرآن ذكرت فيه سورة المسد تنذر بالنار أبا لهب، وتعده به حتماً، ولو لم يكن تنزيل رب العالمين لكان يمكن أن يسلم هذا الرجل. . ليشكك في صدق التنزيل.

4 - ولقد ذكرت فاطمة المرنيسي أنّ النبي ﷺ: «قد استطاع إتقان فن الإيقاع «التوازن» بين حق الله سبحانه وأدائه، وبين العيش بآلام الناس والاستجابة لها؛ حيث يعانون الظلم والعنف، بينما أخفق كلّ المتنبّئين الكذبة، مسيلمة وغيره، وسجاح من النساء التي «ارتكبت عملاً طائشاً؛ إذ مع ادّعائها النبوة تركت نفسها تُقاد بالعواطف، ووقعت في حب مسيلمة لدرجة

(1) تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ص: 35.

أنّها تزوجته، وقد كانت مع ادّعائها النبوة مكذّبة بنبوة مسيلمة الكذاب، ثم آمنت بنبوته!، وكانت قبل ادّعائها النبوة متكهنة تزعم أن سبيلها: سبيل سطيح ومسيلمة والمأمون الحارثي وغيرهم من الكهان، وصارت إلى مسيلمة فنكحها.. فشل الرجال والنساء وكلّ الأنبياء الذين أشار إليهم التقليد الإسلامي! بأنّهم كذبة، ذلك لأنهّم لم يتقنوا الإيقاع بين «الإلٰهي والبشري»، تلك الرغبة الحادة بالارتفاع نحو السماء، وشق الأفق الأرضي للذهاب نحو الله، ليصبح ربّانيّاً، فإذا كان مسيلمة قد فشل بشكل محزن، فذلك لأنّه خلط كالكثيرين من السياسيّين في أيامنا بين النبوّة «المزعومة» والديماغوجيّة «تملّق الجماهير» مخطئاً باعتقاده أنّ نجاح مدّعي الرسالة يكون في الإبهار «الإغواء، في قدرته على تملق الجماهير»[1].

ثم بيّنت كيف أنّ مسيلمة قد قدّم إلى مواطنيه: ««مؤسسات دينية!»، وأعفاهم من الصلاة، وأعلن شريعة التزاني والخمر، لقد أعجبتهم هذه القوانين، فاعترفوا به نبيّاً، وقبلوا دينه، لقد بدأ بخطابات مقفّاة غير إيقاعيّة، وادّعى أنّه تلقّاه من السماء»[2]. فأمّا المؤسسات فذلك ما لم أقرأ عنه، أمّا خطاباته فلم تكن سوى جمل مفككة وأمثال بدائيّة بدويّة.

ثمّ تحمد هذه الكاتبة للنبي ﷺ أنّه خلافاً لما اعتقد مسيلمة، يقوم على دفع الناس للمضي بعيداً قدر ما يمكن، وللامتداد نحو أمّة وسط، وأنّه نبيّ لأنّه كان يُعلِّم تاجراً في المدينة أن لا يرى أبعد من طعم الغنيمة، وأن تكون المرأة شيئاً آخر غير السبيّة، ولكونه كان يُظهر أمام إنسانٍ فظّ، سجين نزعاته وصلفه، آفاقاً جديدة من العلاقات البريئة، وأنّ محمداً ﷺ كان نبيّاً لأنّه بدت به أمام الناس: «آفاقٌ واسعة لدرجة أن تأملها ببساطة يدوّخ رأس الإنسان»[3].

---

(1) الحريم السياسي، فاطمة المرنيسي، ص: 176 - 177.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.

ولم يكن الحجاب المكاني الذي فرض على أمهات المؤمنين حجاباً للفعل العقلي أو الشعوري أو النشاط الاجتماعي، لم يكن حجاباً عن عبادة الله تعالى، أو العلم والعمل الصالح، ولكن كان حجاباً عن الذين في قلوبهم مرض، الذين لا يستطيعون التحكّم في طمعهم، ويعانون من اضطرابات شهويّة وميلٍ بلا ميزان، وإبقاءٌ لقلوب المؤمنين - وقلوب المؤمنين كالشامة البيضاء - طاهرة من كل شعور جائر؛ كما قال الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53].

لقد كان هناك ممّن لم يبلغ الدرجات الإيمانيّة والتقويّة والحضاريّة من يؤذي الرسول ﷺ، أو يحرجه ويقضي وقته في مجلسه الذي لم يكن يتّسع للفارغين الذين كانوا لا يراعون طيب النبي ﷺ واستحياءه منهم، فيمكثون وقتاً طويلاً في بيته، فيؤثر ذلك على سكنه، ويصرفه عن حقه في أمنه المسكني وعمله في بيته، وقد يصدّ أمهات المؤمنين عن أعمالهنّ البيتيّة والإيمانيّة والحياتيّة.

وقد كان هؤلاء عدداً قليلاً لا يمثّلون سائر المؤمنين الذين زكّاهم الرسول ﷺ وامتحن الله قلوبهم للتقوى.. ولم تكن نساء النبي ﷺ بدعاً في هذه الحالة التطهرية؛ فقد شهد التاريخ حالة مريم التي كانت تمثّل مثل هذا الإقطاع العبادي كما قال الله عنها: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا

سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: 16-19].

وقد بيّن أحمد العشماوي في كتابه حول تطور العلاقات الجنسيّة بين الرجل والمرأة أنّ الإسلام إنّما وضع مواصفات للباس المؤمنة فيما سمّي فيما بعد بـ «الحجاب» لحفظ النساء من الأعين المتلهّفة إلى إشباع الشهوة، ولو كان ذلك على حساب أزواج الآخرين.. وإنّ نظام الحريم المتأخر الذي كانت تجتمع في مؤسسته الأعداد الكبيرة من النساء العائدات إلى بعض الأمراء والحكّام بعد تدفق هذه الأعداد بفعل حالات المواجهة مع السلطات المجاورة لدار الإسلام.. وتعرّض النساء في هذه المؤسسة إلى التضييق والحجب وعدم الإشباع الشهوي أو التعطيل الحيوي ليس من صنع الإسلام الذي فيه شرعه أتمت لإزالة عبوديّة النساء وتحرير من أدى بهنّ ظرف سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو عسكري أو إنساني إلى الأسر أو التملك... وإنّ النبي محمد ﷺ: «لم يكن هو صاحب هذا النظام الخاص بالحريم عندما أمر بحجب نسائه؛ إذ لم يرد في القرآن أية إشارة إلى هذا النظام، كما لم تذكر الأحاديث النبويّة ولا المؤلفات الإسلاميّة التي ظهرت في مستهل الدعوة الإسلامية أيّة كلمة عن نظام الحريم»[1]، هذا النظام الذي عرفته بلاد ما بين النهرين من نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وبلاد الفرس، ثم ظهرت صورة منه في تاريخ المسلمين من باب معاملة الغير بالمثل الذي كان يأسر النساء ويمتلكهنّ ويتاجر بهنّ.... ولم يكن هناك في عصر النبي ﷺ والخلفاء الراشدين نظام الحريم الذي يشرف عليه الخصيان، أو مكانه الذي يعزل عن العالم ويكتسب سمة تقديسيّة يغدو دخوله تدنيساً أو انتهاكاً أيّاً كان داخله!

ولقد كان لأمّهات المؤمنين نشاط إيماني علمي واجتماعي وسياسي يمثّل

(1) تطور العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، أحمد الشنتاوي، ص: 197.

دحضاً لشبهة الحبس والحجر الملصقة بالبيت النبوي الكريم؛ فقد كان لخديجة رضي الله عنها دور نفسي ومالي واجتماعي في حياة النبي ﷺ، كما كان لعائشة رضي الله عنها دور روائي متميز؛ فقد نقلت «2210» أحاديث، وكان بيتها مأوىً علميّاً ومركزاً تخصّصيّاً يقصده كبار العلماء، وقد أدّت أمانة إفتائيّة، وشكّلت في تأريخ العلم وأثر عنها مجموعة فقهيّة خاصة، وقامت بأعمال تعليميّة للجنس النسوي، فضلاً عن نبوغها الطبي وإلمامها بالعلوم الطبيّة المعاصرة، خاصة وأنّها لم تكن لها أطفال تنصرف إليهنّ بوقتها.

أمّا أم سلمة فقد كان لها عمل تفكّري تساؤلي جعلها مرة تتمنى لجنسها أموراً تعلو على طاقة المرأة الاعتياديّة، وذلك بالمشاركة القتاليّة العامة في الجهاد، متسائلة عن الحكمة من عدم تشريع هذه المشاركة، حتى تنزَّل قول الله سبحانه الذي بيّن لها أنّ هذا التطلّع النسوي يدخل في عالم التمنّيات التي لا تلامس الموهبة النسائيّة، والنبي ﷺ الكريم الرحيم بالنساء لم يستعمل العنف في حياته مع المرأة، ولم يضربها، وسمّاهنّ بالقوارير وشقائق الرجال... فالنبي ﷺ وعمر الذي تروى عنه رواية في النساء، وأمّ سلمة «أم المؤمنين» يتبعون الوحي، والله لا يحيف على النساء في ما شرع، ورسوله ﷺ كذلك في حديثه، والتمييز بين الذكور والنساء اجتماعيّاً يكون بالعدل بينهم عدلاً يرتفع عن المساواة التماثليّة القاصرة.

وقد بيّن الله في هذه الآية الكريمة أنّ لكلٍّ من الرجال والنساء فضلاً خاصاً لا يتميز به الآخر، وأنّ على الزوجين استثمار مواهبهم في أقصى مستوياتها، وأن يسألوا الله تعالى من فضله للمزيد الموافق لتركيبهم، قال الله:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: 32].

كما أنّ أم سلمة كان لها الدور السياسي الاستشاري البارز في حياة

النبي ﷺ حين أشارت عليه في صلح الحديبيّة أن يحلق ويحلّ لإنهاء تأخر المؤمنين في العمل بأمره للمؤمنين بذلك، بالاستجابة لشروط هذا الصلح الذي علّمه الله أنّ يوقّعه بعد أن أوشك حدوث عصيان لأمره ﷺ، وكان لنساء أخريات أعمال اجتماعيّة وعلميّة وعباديّة متنوعة لا مجال هنا لذكرها.

أما المشهد الآخر الترفيّ الذي كانت النساء فيه لا يفكّرن إلا في الطعام والشراب والشهوات والزينة، سواءً في التاريخ العالمي، أو الخيال القصصي، أو في العصر الحديث؛ والتي قصّ القرآن مثالاً قصصيّاً عنها في قصة يوسف عليه السلام؛ حيث ترود نساء الكبراء في المجتمعات المدنيّة من تتوسم فيهن الجمال الشكلي.. وإظهار زينتهنّ في الحفلات المختلطة فهو المشهد الأدنى الذي لا يليق بالمؤمنين فضلاً عن الأنبياء والمرسلين.. ومن العجيب أنّ أحدهم ترجم كتاب الحريم السياسي لفاطمة المرنيسي النبي والنساء «الحريم السياسي»، ووضع عليها لوحة لنساء قريبة الشبه بما تخيّله الرسامون الغربيون للشرقيّين من وجود الحريم المسجون المكفوف عن الحياة الاجتماعية.. فنساء الرسول ﷺ لم توصفن، ورسمهنّ يخالف الشريعة.. ولا ندري كيف أذن له بذلك؟

إنّ الصورة التي أخذت للرسول ﷺ وهو يتعامل مع أزواجه ذات حكمة عميقة وإشارة إلى الرأفة الشعوريّة، والتلوين العاطفي الذي يضفي رحمةً ولطفاً عليهنّ، وتدبيراً لأمرهنّ وما يردن ما دام في حدود رضوان الله سبحانه.

فالمواجهات التي خاضها ضد أعداء الله والمستضعفين، وآلام الحرب النفسيّة التي كانت تضايقه، وعكوفه، وتبتّله إلى الله سبحانه وانقطاعه إليه، ومتابعته الواسعة التي كانت تتوجه لتزكية المؤمنين ومشاركتهم في حياتهم بكلّ تفصيلها وهمومها، ورجائه في إسعادهم في الآخرة، بل حرصه الشديد على من يصطف في مواجهته، وحزنه وأسفه على معاناتهم بعيداً عن هدى الله كلّ

ذلك وغيره من الشعور المستفيض الذي تميّز به، والذي بيّنه الله في قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]. كلّه لم يمنعه أن يبتغي مرضاة أزواجه ويسعى إليها، حتى ليحرّم على نفسه طعاماً مقبولاً لديه لا تحريماً دينيّاً بل شخصيّاً بما يقارب الامتناع عن أكله، ويسرّ إلى بعض أزواجه حديثاً خاصاً لترضيتها، ويلجأ إلى تعاملٍ لطيف في المداراة لكي يحفظ شعورها من الأذى والجرح.. هذه الإجراءات المتنوّعة يستعملها الرسول ﷺ لإقامة الميزان بين نسائه بما يقتضيه من جهد متميز، لكنّها لم تنه حالة التظاهر النسائي في البيت النبوي.. وقد أنبأه الله ببعض المعلومات التي تعينه في الحكم في هذا الأمر، وقد دعا صاحبتي العلاقة إلى التوبة، وإنهاء حالة التظاهر، وبدونه سوف يدافع عن الرسول ﷺ، وكذلك جبريل وصالح المؤمنين والملائكة ليظاهروا النبي ﷺ ويوالونه على الحق.

لم يكتم النبي ﷺ شعوره الودود لنسائه كما يفعل البعض حين لا يعلنون عن ودهم تجاه أزواجهم لئلا يخدش كبرياءهم أو يقلّ تقديرهم، أو تُستغل للإساءة لهم ... فلم يجد نقصاً في إعلانه حبّه لخديجة قائلاً لعائشة: «**إنّي قد رُزقتُ حبّها**»[1]، ولم ير بأساً أن يفصح لودّه لعائشة بإجابته عن سؤال لأحد السائلين له: أيّ الناسِ أحبّ إليك؟ فيقول: «**عائشة**»[2].

إنّ إنكار نبوّة الأنبياء وتلقّي محمد ﷺ القرآن عن الله، وتفسير حياته شهويّاً خالصاً هو أحد عوامل عجز أو خطأ البعض في تأويل أنباء هذه الحياة وفهم بعض أمورها، كما أنّ التفسير الرهباني المبتدع الذي يستقذر الشهوات ويظنها رجساً أو دنساً بالكلمة الشائعة يناله نفس العجز عن فقه زواج

(1) حديث رواه مسلم 4/ 1888 والحديث برقم: 2436.
(2) متفق عليه/ البخاري 8، 74، ومسلم 4 - 1856، حديث رقم: 2384.

النبي ﷺ، كما نال «الحداد» الذي زعم أنّه كان خللاً وعيباً وعاراً لأنّه يخالف مثال المسيح عليه السلام الذي ارتفع فوق حاجة الرجل إلى حواء.. ولم ينتفع بقول العقاد في خطابه لبعض المستشرقين الذين زعموا أنّ تعديد الرسول ﷺ لأزواجه دليلٌ على فرط ميوله الشهوانيّة قائلاً له: «إنّك لا تصف السيد المسيح بأنّه قاصر الجنسيّة لأنّه لم يتزوج قط، فينبغي ألا تصف محمداً ﷺ بأنّه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء»[1] كما أنّ عمر المسيح كان 33 سنة، ولم يعمّر ليجد آثار العزوبة في سنوات لاحقة.. وقد تزوج ﷺ عائشة بنت أبي بكر بعد رؤيا تكرّرت مما يدلّ على أنّ هذا الزواج كان وحياً من الله تعالى؛ فرؤيا الأنبياء حقٌ، ونوعٌ من الوحي، وكنافذةٌ على الغيب.. ذكر البخاري: قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: «**رأيتكِ قبلَ أن أتزوجكِ مرتين، رأيتُ المَلَك يحملكِ في سرقٍ من حرير، فقلت له: اكشفْ، فكشفِ؛ فإذا هي أنتِ، فقلتُ: إن يكنْ هذا من عندِ الله يمضه**»[2].

القرآن يبرّىء أم المؤمنين عائشة من الإفك، ويدحض حجج المفترين

وقال الله في تبرئة عائشة رضي الله عنها من الإفك الذي رمته به ثلّة من المنافقين، وحبكته في الظلام، ثم تسلّلت به إلى الأوساط العامّة: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: 12].

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: 26] وقال عن

(1) منهاج المستشرقين في الدراسات العربيّة والإسلاميّة، بحث الدكتور تهامي نفرة، ص: 53.
(2) متفق عليه، صحيح البخاري 8/ 76، 75، وصحيح مسلم 4/ 1890 حديث رقم: 2438.

أمّهات المؤمنين عامة بعد إلزامهنّ بمستوى معاشي محدود، وبعقوبات مضاعفة في حالة ارتكاب مفترض - على بعدهنّ عنه - للفاحشة، ودعوتهنّ إلى القنوت والطاعة الشفّافة لله، حتى التحكّم في النبرة الصوتيّة التي أخضعت لتقوى عالية حتى لا يطمع مرضى القلوب في رقّتهنّ الأنثويّة الفطريّة... مع الاستقرار في البيت كمحور مكاني، يحفظ من الخروج الفضولي، ويصون من التبذّل والنظرات الآثمة، والأمر بإقامة الصلاة إيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ﷺ تحقيقاً لتطهيرهنّ من كلّ رجس علماً بأنّ هذه البيوت لم تكن سوى مقرات وبؤراً إيمانيّة، ودوراً للحكمة والعلم، ومواضع للذكر، قال عنهنّ:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].

لقد أكّد القرآن بما لا يدع مجالاً للشك المعاصر أو إعادة فتح الملف الذي فتحه المنافقون، ونشره اليهود، بأنّ ما أثير حول عائشة رضي الله عنها كان إفكاً، و«الإفك»: «أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل هو البهتان، وهو الأمر الذي لا تشعر به حتى يفجأك، وأصله الإفك وهو القلب»[1] أي قلب الواقع، والتلاعب به، وحبكه بشكل افتراضي لا يتحمّله سياق الموضوع؛ إذ كيف يؤمن الناس بنبي لم يستطع أن يذهب الرجس عن أهله؟ وكيف تنقلب مؤمنة طيّبة مطهّرة اختارها الرسول ﷺ «زوجاً» له إلى أجواء الإثم؟

ثم إنّ كون القاذفين لعائشة رضي الله عنها من المنافقين والمتأثرين بافتراءاتهم يؤكد براءتها لأنّ مثل هذا الصنف يعاني من مرض قلبيّ؛ فهم يسقطون

(1) التفسير الكبير، الفخر الرازي، جزء 23، ص: 172.

أهواءهم الشهويّة على مواضيع خارجيّة لأسباب مرضيّة وعدائيّة... فقد بيّن الله سبحانه أنّ هناك تخطيطاً آثماً لإنشاء هذا الإفك، وقد شاركت فيه عصبة متعاونة يقودهم رجل تولّى افتراء هذه الكبيرة، ووعده الله بعذابٍ عظيم، والأرجح أن يكون ذلك الرجل عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين... ويصف «كونستانس جيورجو» نفسيّة هذا الرجل المريضة ومحاولاته الدائبة لاختراق الأمة المؤمنة من الداخل بشتى وسائل الدس، والتبسيط والتشكيك، وعفو الرسول ﷺ عنه، وكيف أنّه لم يشكر محمداً ﷺ على عدم قتله بل إنّه:

«جعل يتحيّن الفرصة المواتية للنيل من النبي ﷺ، فانتهز أمراً ضد عائشة رضي الله عنها، فأثاره ضدها، ونشر اليهود هذا النبأ وهم خصوم محمد ﷺ، وهجا حسّان عائشة في شعره... وأضفى خصوم محمد ﷺ على الحادثة خيالات وقصصاً موهومة لا أساس لها من الصحة»[1].

وأعاد القرآن كما بيّنا وصف هذا الاتهام بالإفك المبين الذي لا يستند إلى أيّة بيانات أو شهادات؛ إذ أنّ هذه العصبة لم تكن قد شاهدت الأمر عينيّاً؛ لذلك فإنَّ تصديق هذه الفرية التي تفتقر إلى القرائن تعَدُّ ضعفاً في الشخصية، وبناءً افترائياً قائماً على سوء الظن وحده لا يليق بالمؤمن الذي لا يرضى لنفسه هذا الموقف أو لأهله، فكيف يرضاه لرسول الله ﷺ الذي كان مثال البعد عن الرجز والدنس بكلّ أشكاله، ولعائشة رضي الله عنها التي لم يُعرف عنها سوء؟... وهكذا يفقد هذا الافتراء أرضيّته، كما أنّه يدخل في عالم القذف الآثم الذي لا يليق بالطهر الشعوريّ والموازين الإيمانيّة، قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: 4].

(1) نظرة جديدة في سيرة رسول الله ﷺ، كونستانس جيورجيو، ص: 283 - 284.

كما أنّه سبحانه بيّن أنّ فضل الله ورحمته وحدها هي التي حالت دون أن يمسّ هؤلاء الذين خاضوا في هذا الإفك وأسمعوه للناس عذابٌ عظيم يجعلهم عبرة لأمثالهم في الدنيا، فضلاً عن عذاب الآخرة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 14].

وقد صَرَّفَ الله موضوع براءة عائشة رضي الله عنها ببيان أنّ الحديث كان فيه تلقّياً لسانيّاً خالياً من التثبّت، وتقوّلاً بالأفواه للكلمات.. لقد كان منقطعاً عن الإبصار والوعي، قائماً على ظنٍّ ليس خيراً، وإنّه يدل على عدم الشعور بالإثم، وحسبان هذا الأمر هيّناً، وهو إيذاء شديد للنبي ﷺ، ولصاحبه أبي بكر الصديق الذي لم يُرم بيته بمثل هذا في الجاهليّة فكيف في الإسلام؟ وكيف ببيت النبوة؟ وبعائشة رضي الله عنها التي أمرضها هذا الإفك؟

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: 15].

ولقد كان الأولى بهم أن لا يتكلّموا بمثل هذا الكلام، وأن يسبّحوا الله أن يقضي بحدوث مثل هذا الطعن الذي يؤذي الرسول الله ﷺ الذي اختاره الله، وجعله رحمة للعالمين، وأن لايشاركوا في التحدّث بهذا البهتان العظيم.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 16].

ثم وعظ المؤمنين بعدم العودة لمثل هذا البهتان في المستقبل وإلى الأبد، وعدم التشكيك في براءة عائشة رضي الله عنها إن كانوا مؤمنين بكلّ هذه الآيات البينة الدلالة التي بيّنها الله سبحانه، وهو العليم الحكيم الذي يعلم السر والنيّات، ولا يخفى عليه شيء.... والذي اقتضت حكمته أن يمرّ النبي ﷺ والمؤمنون بمثل هذا الحادث الأليم ليُؤسسَ عليه جزء من شريعة هذا الدين، ويُكْشف به الذين يحبّون انتشار الفاحشة وشيوعها في الذين آمنوا، ويُفْصل الطيّبون

والطيّبات عن الخبيثين والخبيثات، ويَظْهَر صبر النبي ﷺ وصاحبه وأهله على هذا الابتلاء الشديد.. وذلك ما تكفّلت به الآيات التالية... ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: 19].

فهناك إذاً جيوب نفاقيّة يتمنى أفرادها أن تغدو الفاحشة شيئاً اعتيادياً مألوفاً، فإذا ما نجحوا في إلصاق هذا الإفك بالبيت النبوي الطاهر فكأنهّم قد قطعوا شوطاً مهمّاً في إزالة الشعور بالإثم والتحرج من إتيان الفاحشة، وتشكيك المؤمنين في العفة والطهارة والنظافة.. ولكنّ الله سبحانه كان يعلم هذه المخططات السريّة، ويكشفها للمؤمنين بفضله ورحمته التي تحول دون نجاح هؤلاء في مكرهم، وتحفظ المؤمنين والمؤمنات من عواقب استشراء هذا المرض وتطبيع السوء والفحشاء بينهم قائلاً: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: 20].

ويزيد الله سبحانه المخاطبين إيماناً بأنّ التورط في القذف والإفك ليس أمراً هيّناً، ولا كلاماً عادياً، أو رواية اجتماعيّة يوميّة، بل إنّه اتباع لخطوات الشيطان، وتلويث للنفس واللسان، وانخراط في الفحشاء والمنكر، وعلى الذين آمنوا رجالاً ونساءً أن يتطهروا منه، ويفروا من ظلاله الآثمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 21].

ومرة أخرى يكون فضل الله ورحمته هو الذي يعصم الذين آمنوا من الانحدار والإثم، والمشاركة في مخطط الافتراء، وتهوين الفاحشة، وإيذاء البيت النبوي الطاهر.

ثم كان من فضل الله أيضاً ورحمته أن يحفظ صلات المؤمنين من

الانقطاع والتفكك والتمزق، فيكلّف الذين تأذّوا من هذا الإفك كأبي بكر رضي الله عنه الذي لم تعرف عائلته في الجاهلية مثل هذه الآثام أن يترفّعوا على ألمهم وعلى إنسانيّة شعورهم، وعلى منطق وسطهم، وأن يعفوا ويصفحوا عن المؤمنين ذوي الحالة الماليّة والظروف الاجتماعيّة العصيبة، الذين تورطوا في الإفك، وكان مسطح بن أثاثة هو المراد فقد كان قريباً لأبي بكر رضي الله عنه، وكان من فقراء المهاجرين، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد أقسم أن لا ينفعه، لكنّ الله سبحانه وعد أبا بكر رضي الله عنه بالمغفرة مقابل أن يعفو عن حقه الخاص الذي اعتدى عليه هذا المؤمن برميه لعائشة الصديقة المبرّأة ابنته. . . أمّا الآخرون الذين يمارسون الإفك تلذذا وخبثاً وعن سبق إصرار، المنافقون الذين يرمون المحصنات الغافلات البريئات اللائي لا يحذرن مثل هذه الافتراءات لطهارة أنفسهنّ ونقاء سرائرهنّ وعدم توقعهنّ لمثل هذه الخطط الكيديّة فلهم شأنٌ آخر، إنّهم يستحقون اللعنة والطرد و الإبعاد من رحمة الله وعفوه وفضله، والعذاب العظيم الذي يعلو على العقاب الدنيوي الذي نجوا منه، لعدم توفر إجراءات شهاديّة وإثباتيّة على اقترافهم للذنب ونسجهم لخيوطه السرطانيّة، حيث يُحاسبَون حساباً حقاً، عسيراً مكافئاً لكبر ذنبهم.

وحينذاك سيعلمون أنّ الله هو الحقّ، ووعده حقٌّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 23].

ثم تختم آيات الموضوع ببيان أنّ ما قدّره الله سبحانه من زواج النبي ﷺ بعائشة، وما كان يكنّه ﷺ من حبّ فريد لها لم يكن صدفة بل كان اتصالاً بين عناصر الطيب والطهر، وانجذاباً، وتوافقاً، كما وإنّ الطيّبين للطيّبات ومنهنّ عائشة بنت الصديق، وهي مبرّأة كغيرها من الطيّبات من هذه المقولات الأفّاكة. . . . وإن الله سبحانه سيغفر لهؤلاء ذنبهم . . ويرزقهم رزقاً كريماً في الدنيا والآخرة.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: 26].

وقد ذهبت المرنيسي في تفسيرها لحديث الإفك مذهباً مشبوهاً حين لم تُسمّهِ إفكاً بل نميمة، والنميمة يمكن أن تكون إذاعة أمر واقعي، كما أنها سمّته «قضية العقد» كتسمية المستشرقين له فهي تقول: «إنّ عبدالله بن أبيّ هو ذلك المنافق من قبيلة الخزرج الذي عمل على إشاعة النميمة ضد عائشة، وصفوان؛ ذلك الشاب الذي أوصلها إلى المعسكر في قضيّة العقد»[1] ولكنها اعترفت أنّ حملة التشنيع ضد عائشة رضي الله عنها قد تزعّمها رئيس المنافقين الذي يعيش من إلزام نسائه العبدات التزاني[2]، فهي تقول:

«لقد كان معتاداً على ممارسة العنف والإكراه على عبيده، فعبدالله بن أبيّ كان قد ضرب مسيكة ليجبرها على أن تسلمه نفسها، يأمل أن تحبل منه، وأن يمتلك فيما بعد الولد الذي يستولد من هذه العلاقة»[3]، ولقد كان الأولى أن تحسن الظن بعائشة الصدّيقة التي نزلت فيها آيات بيّنات، إن كانت مؤمنة كما زعم مقدّم كتابها، وأن تسمّي الأشياء بأسمائها، وهل يمكن أن يُحسب هذا القذف مجرد نميمة عاديّة؟ وهل ترضى مؤمنة لنفسها مثل هذه النميمة الفاجرة؟ وأن تَعْلَم إن كانت تالية للقرآن أنّ هذه الحملة على نساء النبي ﷺ أمّهات المؤمنين إنّما هي امتداد نفاقي عريق له أمثلة في التأريخ من قذف النساء الطيّبات... وقديماً رمى اليهود مريم عليها السلام بالزنا بدون حجّة بيّنة أو شهادة: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: 27-28]، وأن لا تتجرأ على الحق المثبت في كتاب الله، والذي يمثل وثيقة تبرئة من هذا

(1) الحريم السياسي، ص: 231.
(2) المصدر نفسه ص: 226.
(3) المصدر نفسه ص: 231.

البهتان المبين، قال الله في هذا الافتراء، وأن لا تحسب قضية تافهة، وقد أنزل الله سبحانه فيها سبع عشر آية.

النبي ﷺ وأزواجه أمهات المؤمنين

من الطعن الذي يُوجّه إلى النبي ﷺ أنّه توفي عن عدة نساء، ويتجاهل هؤلاء أنّ ثبوت نبوّة أيّ نبي ينسخ التفسير غير البريء، أو الاعتراضات الذوقيّة الملبّسة، والأهواء التي تُسمّى أحياناً قراءات معاصرة، أو الشبهات والشكوك المفتراة على رسالته وحياته، والتي يُراد بها التقليل من مكانته، وإضعاف التأسّي به، أو إحلال آخرين في موقعه من القلوب والأنفس، أو المزايدة على أنبياء آخرين هم إخوةٌ له، والذين مثّل ﷺ عمله بلبنةٍ في بنائهم، أنبياء بشّروا بنبوّته، ودعوا أتباعهم إلى الإيمان به.. لقد ثبتت النبوّة بالفعل العقلي، وبتدبر القرآن، وكيفيّة تنزّله على الرسول ﷺ الذي لا يشابه التأليف الإنساني للكتب، وبالوثائق التاريخيّة والتماثل بين المصاحف التي تشهد بعدم تعرّض القرآن للنشوء التطوري، أو للتبديل، أو التحريف، أو الاختلاف، ولا يُعقل أن يكون ﷺ قد أتى بأمور أو مواقف تنقض رسالته وآياتها الداعية إلى إكرام النساء... وله في ذلك أحاديث تُذكر ولا تنسى.

ثم إنّ المثل: «إنّ الذين يقذفوننا بالحجارة بيوتهم من زجاج» ينتفع منه فأولى بهم أن يكفّوا عن تأليف الكتب التي تطعن في هذا النبي الكريم ﷺ؛ إذ أنّهم ينسبون لأنبيائهم ما لايليق بأحطّ الناس، فيزعمون أنّ داود عليه الصلاة والسلام احتال على قائده «أوريا»، وأرسله إلى ميدان القتال ليستولي على زوجته، وأنّه رقص أمام التابوت عارياً، وتزوّج مائة امرأة.. مع أنّ مزاميره مقدّسة عند النصارى.. ويذهبون إلى أنَّ لوطاً عليه الصلاة والسلام قد زنى

بابنتيه بعد إسكارهما له، فلماذا لا يُقدم تفسيرٌ لهذه الأخبار المفتراة وغيرها؟ وكيف يُقتدى بهم وهذه المفتريات تلصق بحياتهم؟ ولماذا يقع بعضهم في شبهات الآخر على زواج الرسول ﷺ من أُمهات المؤمنين، ووفاته عن تسع منهنّ؟ دون ذكر ملابسات زواجه منهنّ وحكمته، وإغفالاً متعمّداً، ولماذا تُذكر هذه الخصوصيّة النبويّة في الزواج؟ ولا يُذكر ما فرض الله عليه من قيام الليل والتهجّد، دون الإيغال في شهوة الطعام أو أكل المشهّيات، وعدم أَخذه للزكاة والصدقات، مع كنز رجال دين آخرين للذهب والفضة، وعقدهم للصفقات الماليّة المريبة والهائلة؟! لماذا لا يذكر هؤلاء الكتّاب أنّه لم يكن للنبي ﷺ أن يستبدل هذه النساء بأخريات، أو يهملهنّ ولايؤدي حقهنّ، أو يسافر تاركاً إياهنّ مهجوراتٍ، أو يسمح لهنّ بأن يسكنَّ في بلاد أخرى بعيداً عنه؟ فضلاً عن أنّه لم يُقم علاقات في العتمة مع نساء أُخريات.. وقد حُوّلت معابد إلى أوكارٍ للمتعة الجنسيّة المحرمة بل والشاذة.. بتأويل ديني، أو إفراط في حبّ النساء، أو رهبانيّة مبتدعة، كما نجد في واقع بعض من يتبع ديناً آخر غير الإسلام في بعض البلدان، وبشهادة أهلها.. ومنهم من يستنكر تعديد الزوجات لتجاهل فطرة الذكور أو استسلامه للنظرة الكاثوليكيّة للزواج.. وهو يعاكس حاجته.

لماذا لا يقال: إنّ هؤلاء النسوة بقين بعد وفاته بدون أن يُسمح لهنّ بالزواج، وبعيداً عن أيّة شبهات،يذكرن آيات الله والحكمة، وتحيا كلٌّ منهنّ حياة التقوى والعبادة والعمل الصالح،ولم ينتقص إحدى من أعدائه في حياته الخلقيّة قبل البعثة، ولا بعدها، وكان يأخذ أحد أمّهات المؤمنين حتى في جهاده، ولم تكن له سكرتيرات أو نائبات أو محظيّات، ولم تكن له حياة سريّة نسويّة خاصّة.

ثمّ إنّ كثيراً من الفلاسفة ورجال العصر لم يسلموا من طعنٍ في حياتهم بل نسبهم .. ونساء في السرّ يفخرون بهنّ، أمّاظاهرة بنات الليل في بعض

البلاد فلا تحدث بذلك، وعند بعضهم يشمل الحب ما حُرّم، ولا توجد مفردة العرض في بعض المعاجم.

لقد كان بيته ﷺ مثالاً لعولمة لا تعرف تصغير الآخر أو الحطّ من شأنه لأصله الديني السابق، أو قومه.

وهو في شبابه لم تُعرف عنه ما عُرف به غيره، ولم يشرب الخمر شأن من يغيّب نفسه عن الواقع، أو يسترسل في الشهوات، كما أنّ أزواجه لم تعشن عيشة ترف وإسراف ورحلات وحفلات وأزياء ومواكب ومباهاة وتلذذ مفرط بالطعام والشراب، ليظنّ بعضهم أنّه كان رجل دنيا ومتع، فلم يسافر بهنّ إلى أقطار الأرض ليريهنّ عجائب الدنيا السبع، أو يقيم في بلادٍ ولدى ملوك الأرض، ولم يترك لهنّ ضيعات ومزارع وجزر ومستعمرات وتيجان ملكات.

أمّا قصة زواجه بخديجة فمعلومٌ فرق السنّ بينهما، وكونها أرملة، وهو شاب في مقتبل العمر.

من حكم زواجه بعائشة: المنبت الطيب لها؛ والذي جعلها تخلص مودتها للرسول ﷺ، وما أنشأه هذا الزواج من تقوية صلة أبي بكر رضي الله عنه به ﷺ، وإفساح المجال لحركته الواسعة ضمن البيت النبوي (حجرة عائشة) لإنجاز الأعمال الإيمانيّة والاستشاريّة المطلوبة منه.

يقول «مونتغمري وات» في دائرة المعارف الإسلامية وفي قوله بعض الحق: «كان محمد ﷺ يهدف في جميع زيجاته تقريباً إلى غرض سياسي، ومن ثم فلا ريب أنّه اتخذ من زواجه بعائشة وسيلة إلى تقوية أواصر الصلة التي ربطت بينه وبين صاحبه الأكبر أبي بكر»[1] ومن حكم صغر سنها أنّها كانت في هذا العمر مهّيئة بشكل جيد للتكيّف مع مقتضيات دورها كأمّ متميّزة

(1) دائرة المعارف الإسلاميّة، مجلد 15، ص: 422 - 423.

للمؤمنين، وما تستدعيه من مسؤولة والتزام إيمانيّ وحياتيّ وتقويّ وعلميّ ثقيل، فهذه الفترة: «مرحلة مرونة وقابليّة للتشكيل والتربية، وهي أولى الفترات التي يكتسب فيها الطفل العادات والمهارات والاتجاهات الاجتماعيّة والنفسيّة[1]». ثم إنّ البيئات تختلف في سنّ النمو الجنسي تبعاً للعوامل الجغرافيّة والاجتماعيّة.. وقد قام «كينزي» بدراسة السلوك الشهوي لـ«5000» من الذكور فوجد أن فردين من ثلاث يقومان بنشاط شهوي سري، والفتاة في ألمانيا لها صلات شهويّة بالذكور وهي في سن العاشرة. والرسول ﷺ لم يتصل بعائشة رضي الله عنها بدون رضاها، كما أنّه لم «يبن بها» إلا بعد بلوغها، فليحذر الذين يزايدون على قضيّة المرأة من إسقاط أنباء اغتصاب النساء أو الطفلات الصغيرات والبنات في الغرب على أفضل رجل دافع عن قضيّة النساء وحمى حقهن.

ولقد زعمت كاتبة نسويّة أنّ عائشة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ في تعقيبها على أمر الله لرسوله ﷺ بتزوج زينب رضي الله عنها بعد تطليقها من زيد رضي الله عنه متبّناه، أنّ عائشة قالت له: «وَاللهِ مَا أَرَى رَبَّكَ إِلّا يُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ»[2].. وهذه الرواية لم ترد إلا بالسياق الحديثي التالي الذي يفسّر قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَٰتِ عَمِّكَ وَبَنَٰتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَٰتِ خَالِكَ وَبَنَٰتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب: 50] وإلى قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ

(1) دائرة المعارف الإسلاميّة، مجلد 15، ص: 422 - 423.

(2) رواه مسلم برقم، 2658 كتاب: الرضاع، باب: جواز هبتها نوبتها لضرّتها.

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ [الأحزاب: 51] فقد قالت عائشة رضي الله عنها حينذاك هذا القول.

فقد أحلّ الله لنبيه ﷺ أن يقبل النساء اللائي يهبن أنفسهنّ له كزوجات بعقد نكاح عليهنّ بدون مهرٍ أو إذنٍ من ولي، ويؤثرن الحياة معه رغم خلوّها من أشكال الزينة والمتعة.

والحجة على أنّه ﷺ لم يكن ساعياً وراء المتعة واللذة الشهويّة أنّه لم يتزوج أيّاً من هؤلاء النسوة اللائي وهبن أنفسهنّ له، ولم يدخل بأيٍّ منهنّ رغم تحليلهنّ.

وقد بيّنت عائشة رضي الله عنها تقديرها لما يحظى ﷺ به من درجة وفضل عند ربّه وحبّه له، ولا يحمل كلامها أيّ تفسير انتقاصي أو دوني، كما لا يعقل أن تُقرأ جملتها قراءة مريضة تزعم ميله للاستمتاع المفرط، وتنزيل آيات مفتراة تؤيد ما هو عليه من زعمهم وتوثّقه، كما يأفك الكتّاب الذين في قلوبهم مرض والخرّاصون؛ فالرسول ﷺ قد ذكره الله بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: 3-4] وقد نهت آيات عديدة عن اتّباع الهوى، فكيف يوفّق ﷺ بين تبليغها وما زعموا من اتّباع هواه؟ وكيف لا يُعاتب عليه؟ وكيف يحافظ على مقامه وتوقيره؟.. إنّما لجأت عائشة رضي الله عنها إلى كلمة «هواك» كمقارب لساني لكلمة الحب التي ذكرت في القرآن والتي فسّرت بـ «الثبات واللزوم والاستقرار»[1]، هي لم ترد به الهوى الذي نهى القرآن عن اتّباعه، أو تقلّب شعوره ﷺ وتنقّله وتطايره الهوائي حول مواضيع شهويّة بدون ثابت وأطر محددة.. لذلك لم يقرأ أحدٌ هذه العبارة قراءة سيّئة بل: «اشتهرت هذه الجملة

(1) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص: 106، معجم مقاييس اللغة ج 2 مادة حب.

في التأريخ العربي على أنّها أرقّ مديح مدحت به عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ، وعبّرت عن شديد إعجابها بمكانته عند ربّه، حتى أنّ في الشعراء من دبّجوها في قصائدهم التي أنشدوها في مدح رسول الله ﷺ»[1].

أمّا حفصة بنت عمر رضي الله عنه فقد تزوّجها الرسول ﷺ، ومن حكم زواجه منها أنّه أعلى بذلك شأن النساء وكرّمهنَّ من خلال هذه الأرملة التي توفي عنها زوجه فبقيت تتأذى من الوحدة وفقدان الزوج المؤمن. وقد شعر أبوها بحرمانها فعرضها على أبي بكر رضي الله عنه ليتزوجها فسكت علامةً على الاستغناء، ثم عرضها على عثمان رضي الله عنه فاتخذ نفس الموقف، فلجأ عمر رضي الله عنه إلى الرسول ﷺ يحكي له ما حدث وكأنّه يشتكي له حاجتها فقال له ﷺ: «**سيتزوجها منْ هو خيرٌ من أبي بكر وعثمان**»[2].

ألا ترى في هذا الزواج السمة التقديريّة لهذه الأرملة، وعدم تركها منقطعة، وهي شابّة لها من العمر (18) سنة، وقد مضى على موت زوجها ستة أشهر أو أكثر؟ فلم يرد ﷺ أن تبقى نهباً للحزن العقيم والأسى والوحدة فيما تبقّى من عمرها؛ فقد كانت مرهفة الحس، رقيقة الشعور، مشدودة العصب. وهكذا شعر عمر رضي الله عنه بفرح غامر إذ أكرمه الرسول ﷺ حين قبل أن يتزوجها، مع أنّها لم تكن تملك سمات جماليّة متميزة، ولم تكن بكراً عذراء... ثم إنّه ﷺ بهذا الزواج قد وثّق صلاته بعمر بن الخطاب رضي الله عنه العبقري المحدّث الذي أعزّ الله به الإسلام، ليستثمر مواهبه الفريدة في نصرة هذا الدين، ويسهل اتّصاله به عائليّاً.. ثم إنّ حفصة كانت صوّامة قوّامة، ذكيّة، حافظة، تعلّمت الكتابة على يد الشفاء بنت عبد الله، وروت (60) حديثاً عنه ﷺ، وفضلاً عن تكريم حفصة وأبيها بهذا الزواج فإنّه ﷺ كرّم

(1) هذه مشكلاتهم، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 100.
(2) فتح الباري، ج 8، ص: 733.

بزواجه منها زوجها «خنيس بن حذافة» الذي قتل في سبيل الله بعد أن مزقت شتى أشكال الأسلحة جسده، فآوى إليه زوجه المنكوبة، ولم يتركها لحزنها على فقده.

وقد تزوج النبي ﷺأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان التي هاجرت مع زوجها إلى الحبشة بحثاً عن ملاذٍ إيماني آمن، وقد مات زوجها «عبيد الله بن جحش» بعد أن ارتد عن دينه ودخل النصرانيّة في ذلك البلد.. لكنّ أرملته ثبتت على إيمانها، ولم تتأثر بموقف زوجها الارتدادي، رغم الغربة، والوحدة، وفقدان المعيل، والحرمان من مودة الزوج ورحمته، فأنقذها ﷺ من هذا المأزق الحرج، واستقدمها من ذلك البلد، وساهم النجاشي في تسفير هذه المرأة، وأهدى لها هدايا نفيسة، وتبرع بمهرها (400) ديناراً!.. وقد كانت أرملة متقدمة في العمر، وبلغت من الكبر عتيّاً، وقد يكون من مقاصد هذا الزواج تخفيف عداوة أبيها «أبي سفيان» الزعيم القبلي والمحارب للرسول ﷺ بعنف.. ومن مواقف هذه المرأة «أمّ المؤمنين» الإيمانيّة أنّها لم تأذن لأبيها أن يجلس على فراش النبي ﷺ؛ إذ طوته لمنعه من مجرد لمسه والاقتراب منه، وقد روت 65 حديثاً عنه ﷺ.

وقد تزوج النبي ﷺ سودة بنت زمعة بعد وفاة خديجة رضي الله عنها لترفق بأولاده الصغار من خديجة، وتطييباً لخاطرها، بعد وفاة زوجها «السكران بن عمرو» وكانت سودة متقدمة في العمر ومسنّة.. بلغ عمرها أثناء الزواج (55) سنة، ولم تكن شابّة أو عذراء ليُفسر زواجه ﷺ منها تفسيراً جنسيّاً شهوانيّاً، إنّما كان زواجه منها - فضلاً عن دوره العائلي - ذا سمة تكريميّة، فهو يمثّل التفاتاً شعوريّاً إلى وضع هذه الأرملة التي تحمّلت في سبيل إيمانها الابتلاء، ومنه الهجرة إلى الحبشة، ووسيلة لكسب قومها إلى الإيمان.. وقد حدث ذلك فعلاً؛ إذ دخل كثيرٌ من أفراد قومها في الإسلام.. وقد روت سودة خمسة أحاديث، وبقيت معه ﷺ خمس سنوات.

أمّا ميمونة بنت الحارث فقد كانت أرملة تزوجها ﷺ قبل وفاته بسنتين أو أكثر، وكانت كبيرة في العمر، ويمكن تفسير زواجه منها إيمانيّاً وسياسيّاً؛ فهذه المرأة تنتسب إلى الهلاليّين، وقد اختارها العباس له؛ إذ كانت أخت زوجته، لبابة أمّ الفضل، وقد قدّر قومها هذه المبادرة النبويّة، ودخلوا في دين الله أفواجاً، ونصروا النبي ﷺ. . كما أنّ هذه المرأة كانت تستحق هذا التكريم؛ إذ اشتهرت بالتقوى، وقد زكّتها عائشة رضي الله عنها لذلك ورحمَتها، كما كان لها موقف إعانة على الجهاد في تبوك، وذلك بإسعاف الجرحى ومواساة المرضى.

وقد تزوج ﷺ أيضاً أمّ سلمة (هند) بعد أن أصيب زوجها في غزوة أحد، وتوفي بعدها، وكانت هي وزوجها من السابقين إلى الإيمان. وقد كرّمها بهذا الزواج، ورعى به أولادها: (ولدان وبنتان). . وقد روت 378 حديثاً ممّا يدلّ على قوة حفظها.

وتزوج السيدة زينب بنت خزيمة التي كانت تلقّب بأم المساكين لإنفاقها المال وبرها بالمساكين تكريماً لزوجها الذي قتل في سبيل الله، ومات عنها.

وتزوج ﷺ أسيرتين من أسرى الحرب: جويرية بنت الحارث، وصفيّة بنت حُييّ.

أمّا الأولى فقد تزوجها برضاها، ورفع بذلك الزواج منزلة الأسرى، وكان ذلك وسيلة لتحرير ما يقارب المائة من أسرى قومها بدون تبادل أسرى أو قيود أو شروط، أمّا أسيرات هذا العصر من المسلمات وغيرهن فإنّهن أحياناً يُغتصبن، أو يُقتلن، ويُمثّل بأجسادهنّ، ويُقتل أطفالهنّ أمام أعينهنّ، ويُعذبن أحياناً، ويُجوّعن. . حدث ذلك في البوسنة وكشمير وغيرها.

أمّا الثانية فإنّها أيضاً ألحقت بعائلة النبي ﷺ الكريمة، وجُعلت أمّاً للمؤمنين، وما يحمله ذلك من سمةٍ تقديريةٍ، وقد تزوجت النبي ﷺ بمحض

اختيارها بعد أن قُتل زوجها في (خيبر)، ووقعت في الأسر، ولم يتقدم أحد للزواج منها من المجاهدين، فكان هذا الزواج رحمةً بها، وتكريماً لها، وتطييباً لخاطرها.. وقد كان اختيار صفيّة للرسول ﷺ إيمانيّاً؛ إذ أنّه عرض عليها أن تعود إلى قومها فأبت وآثرت الإيمان والحياة مع الرسول ﷺ، وقصة ذلك أنّها كانت تتصل في نسبها إلى هارون عليه الصلاة والسلام، وقد كانت أثناء حياتها مع زوجها السابق قد رأت رؤياً في ليلة عرسها به وهو كنانة بن أبي الحقيق: أنّ قمراً يقع في حجرها فأولّها زوجها بأنّ هذا القمر هو محمد ﷺ، وأنّها تمنّت ذلك فتمثّلت أمنيتها في رؤياها، وقد لطمها على وجهها عقاباً على هذه الأمنية.. لقد نست صفيّة بزواجها منه ﷺ كلّ تداعيات الأحزان ومآسي المعركة ومقتل أقاربها. فقد أعتق المجاهدون أقاربها المقاتلين بعد أن علموا بهذه المصاهرة: فما كانت امرأةٌ أعظم على قومها بركةً منها.

وقد أراد النبي ﷺ بالزواج منها تخفيف مصابها، وتكريمها، وتأليف قلوب أفراد قبيلتها «بني المصطلق»؛ إذ كانت بنت رئيس القبيلة، وقد أعقبت هذه المبادرة خيراً؛ إذ أسلم أفراد هذه القبيلة إثر هذا الزواج.

زواجه ﷺ من زينب وإبطال عادة التبنّي

إنّ حكمة الله سبحانه اقتضت إبطال التبني ذو السمة الجاهليّة، والذي يجعل الولد المُتَبَنَّى ابناً أو ابنة لمن يتبنّاهما، ويُنسبُان إليه اسماً، ويرثان عنه، وذلك لإعادة الحق إلى نصابه، وقد بيّن الله وسيلة واقعيّة وعمليّة لإحداث هذا التغيير الاجتماعي؛ وذلك ليعمل به أولاً الرسول ﷺ الذي كان قد تبنّى «زيد ابن حارثة» في الجاهليّة، ثم زوَّجَهُ ابنة عمته زينب في الإسلام..

فالرسول ﷺ هو أقدر على تحمّل أذى اللوم الذي سيوجّه إليه حين يأمره الله بالتزوج من امرأة متبنّاه المُطلّقة، وذلك لإبطال هذه العادة التاريخيّة، فالمتبنّى ليس ولداً ذا صلة قرابيّة أصيلة حتى يُحْرَم الزواج من المرأة التي يطلّقها.

لقد كان هذا التزوير راسباً في الجاهليّة، وممتداً حتى في الأديان الأخرى، واتخذ بعداً عقائديّاً، ولم يكن من السهل اقتلاعه من جذوره إلا بهذا الزواج كمثال إنجازي على أرفع المستوياتْ، وجُعِلَ الرسول ﷺ ذلك المثل الواقعي القائم على الفطرة، والذي يزيل التجاوز العرفي على حقّ الإنسان في الانتساب إلى أبيه، وحق الورثة في عدم مشاركة «آخر» لهم بدون صلة قرابيّة، وحق الآباء في إلحاق أبنائهم بهم، وإلغاء حالات الادّعاء الأبوي لغير أبنائهم.

وهذه الطريقة منهاج قرآني فريد من التغيير الاجتماعي والخلقي، وهو أكثر فعاليّة من الطرق الإعلاميّة والنظريّة والقانونيّة والوضعيّة التي تكتفي بإصدار «القوانين» وتشريع العقوبات للمخالفين، فلا يكون الالتزام بها في الدرجة المرضيّة. وعلى سبيل المثال فإنّ الإنسان الذي سمّي بالطبيعي في الغرب قد أعلن حقّه في «الدساتير» والمواثيق الدوليّة، لكنّه لم يكن له ذلك التأثير العملي المناسب؛ فلا زال الملوّنون والنساء والأطفال والجياع والمستضعفون الواقعون على أطراف مراكز القوى، يعانون من غمط هذا «الحق»، وباعتراف القائمين على مراقبة تنفيذ ما شرع لهم.. وقد مرت هذه العملية بمرحلتين: مرحلة نظريّة تعيد ترتيب مكوّنات البناء الاجتماعي التي اختلّ رصفها، وتبعثرت أجزاؤها، وتضع كلّ شيء في موضعه، وتقرر الحق في تفصيله، وتعالج الحالات الواقعيّة، وتقدّر ضعف الإنسان وخطأه. فالآيات تفتتح بمثالٍ من جسد الإنسان الذي يحوي قلباً واحداً لتنتقل منه إلى مثال الصلة القرابيّة التي لا تحتمل إلا نسقاً واحداً قائماً على الحق، فليست

الأزواج أمهات، والأدعياء لا يمكن أن يكونوا أبناءً، وتختم برفع مستوى صلة المؤمنين بالنبي ﷺ إلى مستوى الولاية الإيمانيّة، وصلتهم بأمّهات المؤمنين إلى مستوى الأمومة الإيمانيّة، وإبقاء الصلة القرابيّة في مواضعها الفطريّة: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4].

وفي المرحلة الثانية تَنَزَّلَتْ الآيات التي أمرت بِفَصْم الحالة الزوجية لزيد وزينب التي لم تكن مستقرة أصلاً لوجود تفاوت اجتماعي بينهما، فقد كان الرسول ﷺ قد زوّجها منه لإزالة الفوارق الطبقيّة الموروثة التي كانت بدرجة من العمق والعنف والتأصيل اقتضت أن يُقدم الرسول ﷺ على مثل هذا الإجراء العملي لتجاوز النظرة الدونيّة والتمييز الاجتماعي نحو طبقة أدنى كانت تتميز بضعف اجتماعي وسياسي يلجؤها إلى الاحتماء بالطبقة المهيمنة.. وقد كانت الآية الأولى توجيهاً للمؤمن والمؤمنة ممثّلين في «زيد وزينب»، وفي كلّ زوج وزوجة من بعدهما إلى الرضا بحكم الله وقضائه الذي يبلغه الرسول ﷺ، وهو في هذه الحالة فصم عرى الزوجيّة بين هذين الزوجين وتقديمه على الاختيارات والاقتراحات المقدمة لحل مشكلتهم الزوجيّة؛ فالفرد له حريته في الإسلام ولكن ضمن مايشاؤه الله ويرضاه من التوفيق بين الحياة والمنافع الاجتماعيّة والسياقات الكليّة للمسيرة الإيمانيّة، وبين هذه الحرية، خصوصاً في عصر التنزيل الذي كان يعيد ترتيب الأبنية الفكريّة والصلات الاجتماعيّة السكونيّة والمختلّة التوازن، لصالح بناء إيماني حديث أكثر عدلاً.

وتوجه الأمر في القرآن للرسول ﷺ للحكم بما سبق ذكره، ويبقى شعوره الخاص نحو الموضوع، والذي كان يتسم بمراعاة «الناس» كثيراً والخشية من

تعليقاتهم وآرائهم إذا ما أقدم على العمل بأمر الله الخاص بإنهاء هذه الصلة الزوجيّة التي أنعم الله بها وأنعم الرسول ﷺ على هذين الزوجين لصالح قضية شرعيّة تتجاوز أهميتها هذا الواقع الجزئي الصغير.

فقد كان الرسول ﷺ يوصي زيداً بإدامة هذه الصلة وإنعاشها، ويأمره بمزيدٍ من التقوى، لعلّها تكون سبباً لدفع ما حدث فيها من اضطراب وخلل حين كان يشكو إليه حالته، لكنّ الله سبحانه كان يريد أمراً آخر وهو إنهاء هذه الصلة، وتزويج زينب لرسول الله ﷺ لكي لا يشعر المؤمنون فيما بعد بحرج من تزوج أزواج أدعيائهم «الأبناء بالتبنّي» بعد تطليقهنّ من قبلهم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: 37].

فالله سبحانه هو الذي زوّج رسوله ﷺ «زَوَّجْنَاكَهَا».. لذلك حُدّث بأنّ زينب كانت تفاخر أزواج الرسول ﷺ تقول: «زوجكنّ أهليكنّ، وزوّجني الله من فوقَ سبع سمٰوات»[1]، وحكمة ذلك مبيّنة في القرآن، ولكي تدحض الحجة التي زعم أصحابها أنّ الزواج كان لإعجاب، فهو الذي زوّجها منه عن علمٍ بها، ثم إنّ الأمر أمر الله الذي كان عليه أن يطيعه، وليس اختياراً له... وبعد ذلك يتوجّه الخطاب إلى المؤمنين عامة، وإلى الناس كافة، ليبيّن لهم أنّ هذا الأمر ليس فيه حرج للنبي ﷺ، فهو فُرض ليعيد وضع هذه القضيّة التي تلبّست بتقاليد وتصوّرات وقيود مصطنعة أهوائيّة إلى حكم ثابت في العلاقات الإنسانيّة السليمة، ونسخ التقدير الإنساني الذي قد لا يخلو من التمنّيات

(1) الحديث في صحيح البخاري، فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ج (13/ 403).

والخطأ والظنّ، بتقدير الله الذي يتّسم بالحكمة والحق والميزان، والعلم التفصيلي بكلّ وجهٍ للموضوع؛ فالله هو الذي قدّر الصلات الإنسانيّة الحق تقديراً قبل أن تحدث في الزمان والمكان، وهو الذي أمر رسله بتبليغ رسالاته مهما كان بعض تفاصيلها غير موافق للنظريّات النفسيّة والاجتماعيّة السائدة، أو غير مقبولة لشعور الناس المتكيّف وفق هذه النظريّات، ولو كان شعور الرسل أنفسهم؛ ذلك أنّ عليهم أن يبلّغوا رسالات الله هذه، وأن ينشئوا الأوضاع الحديثة وفقاً لمقتضياتها الحق، فرسول الله ﷺ ليس محاسباً على طاعة أمر الله الموحى به، وليس من حق الناس أن يحاسبوه على ما يفعله من هذا الأمر، بل الله هو الحسيب الذي سيحاسب كلاً على عمله.. فلم هذه النظرة الدونيّة لمثل هذا الأمر؟ أوما يُسمّى بـ«النقد الاجتماعي»؟ خصوصاً وأنّ محمداً ﷺ ليس أباً لزيد حتى تُحرم منه زوجه المطلقة، بل هو رسول الله وخاتم النبيين ﷺ الذي أوحيت إليه شريعة ليس له الحق في عدم تبليغها أو تبديلها أو إرجاء العمل بها؛ هذه الشريعة التي أوحى بها من يعلم كلّ شيء عن الإنسان، قال الله ﷻ: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: 38-40].

وقد لخّصت إحدى الشروح الحديثيّة المعتمدة لصحيح البخاري هذه الواقعة التاريخيّة، وهو «فتح الباري» وكالآتي:

«كان رسول الله ﷺ أراد أن يزوّج «زينب» من زيد بن حارثة مولاه، فكرهت ذلك، ثم إنّها رضيت بما صنع الرسول ﷺ فزوّجها إيّاه، ثم أعلم الله ﷻ نبيه ﷺ بعد ذلك أنّها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمره بطلاقها،

وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنّى زيداً»[1].

وقد أشار إلى «الخبط في تأويل متعلق الخشية» الذي علّق الخشية بالحب المفاجىء الذي أطلقت عليه كاتبة نسويّة معاصرة «صعقة الحب» اعتماداً على رواية مختلقة اخترعها يوحنّا الدمشقي، ونشرها بواسطة أتباعه، ونقلها الطبري دون أن يقدّر سوء تفسير مرضى القلوب لها للطعن في طهارة النبي ﷺ، وقد نقل عنه المفسرون، إلى أن بيّن ابن كثير في تفسيره كذبها وافتراءها، وردّ عليها ردًّا قويًّا.

(1) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج 10ص: 142، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، برقم 10618، للتحقق راجع طبعة دار الفكر بتحقيق عبد الله درويش المجلد 6 الصفحة، 414. أخرجه أبو يعلى والإمام أحمد في مسنده.

obeikandl.com